الحُلم الأسطوري

وقصص أخرى

راشد الوصيفي

ماستر

الحلم الأسطوري

وقصص أخرى

السيد راشد الوصيفي

تصميم الغلاف

بيشوى ظريف

الجمع والإخراج

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠٢٠/١٠٨٧٠م

ISBN: 978-977-85710-6-6

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماستر ©

٢٠٢٠م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

إهـــــداء

إلى كل من عرف وقدَّرَ معنى الكلمة العربية الرَّصينة،
وإلى روح ولدي مؤنس الوصيفي الذي نتنسم فيه الشفاعة يوم اللقاء، فلم نقل إلا ما يرضي الله، والحمد لله رب العالمين...

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»
{ البقرة: ١٥٥-١٥٧}

تقديـــم

بسمِ اللهِ الذي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء، الذي خلقَ فسَوَّى وقَدَّرَ فهدَى، والصلاةُ والسلامُ على حبيبِهِ المصطفي خاتمِ النبيينَ والمرسلينَ، أما بعدُ:

هذه المجموعة القصصية (الحلم الأسطوري) ما هيَ إلا نِتاجُ فكرٍ راقٍ، وحِسٍّ مُرهَفٍ وتصويرٍ بارعٍ، وصياغةٍ تعبيريةٍ محكمةٍ من كاتبٍ نَشْهَدُ لهُ بذلك، تأبَى إلَّا أنْ تنسابَ في فيافي النفْسِ فترويها، وتَدَّفَقَ فيها حتى تَشْبَعَ أقاصِيها بقِصَصٍ احتضنَ فيها الواقع الخيال.

إنها وليدةُ التَّجريب والمهارة، وإحكامِ النَّسْجِ السَّردِي المتأنِق، وأظنها تَنالُ إعجابَ قارِئِها، وتأخذُهُم معها حيثُ شاءَتْ عبرَ أجْواء من العِظة والمُتعةِ والتشويقِ بالمعقولِ واللا معقول.

الشاعر/ نبيل شتا
أستاذ النقد الأدبي

مقدمـــــة

بكاؤكُما يشْفي وإن كان لا يُجْدي
فجُودا فقد أوْدَى نَظيركُمُا عندي

بُنَيَّ الذي أهْدَتْهُ كَفَّـــايَ للثَّرَى
فَيَا عِزَّةَ المُهْدَى ويا حَسْرة المُهدِي

ألا قاتَل اللَّهُ المنايا ورَمْيَها
من القَوْمِ حَبَّات القُلوب على عَمْدِ

- ابن الرومي -

مِيـــلادُ بِـــــذرةٍ
The birth of a seed

(.. ويجري خلفه صوتُ صُراخ طفلٍ خرجَ تواً للوجودِ من رحمِ أُمٍ،
نذرتْ للرحمنِ نفسَها وروحها فِداءً له ..)

مِيلادُ بِذرةٍ

بينمَا قطراتُ المطرِ تتساقطُ متتابعة، راحَ ذراعان يتعاونان يميناً ويساراً كممحاتين، كانَ الطريقُ طويلاً، والقلقُ أسدٌ كاسرٌ، يقبضُ على عُنقي، وينشبُ مخالبَهُ في أحشائي كُلما اقتربتُ .

دخلتُ واجماً تتساقطُ تلكَ القطراتُ من خُصلات شعري، أمسحها بيدي، وقد بللت ثيابي؛ فيجففها جسدي بحرارتهِ المُتقدة، بينما يفزعُ القابعُ داخلَ حُجراتِ قلبي، ويزيد اشتداد قبضته المفترسة على أحشائي؛ فتنبجث الدموعُ من عيني مراراً حينما قابلني من يرتدي مِعطفاً أبيضَ وابتسامة تُزين ثغره، ويجري خلفه صوتُ صُراخ طفل خرجَ تواً للوجود من رحمِ أُمٍ، نذرتْ للرحمنِ نفسَها وروحها فِداءً له، حينما أشاروا وأشارتْ بالموافقةِ أن يُقطع كُلُ جزءٍ من أحشائها؛ لتمنحهُ للحياةِ سليماً مُعافاً .

بينما كبلتُ ذالَ الذي ينهشُ بأحشائي بابتسامةٍ فَرحةٍ انعتقت من صميم قلبي، ولهج لساني، ممتدةٌ عيناي نحو السماء :

- حمداً لكَ ربي على عَطائكَ .

قال الطبيبُ وهو يفك لغذاً مُنحشراً في صدري : ... ولدٌ

تقدمتُ نحوه مُتقداً شاكراً، قائلاً وإن لم يفهم لغتي جيداً :

- هل لي أن أأذن في أُذنيهِ ؟!

- ردَّ قائلاً : you madam is very good

زاد قلبي تهليلاً ودخلت أتفرس طفلي من بين أطفال خرجوا للتو للحياة بصُراخ الحياة الممتد. وشدني خيطٌ سحري تجاه ولدي الذي يرفث الهواء والحياة برجليه، ويعلو وجهه بهاء ونورٌ وطيف ابتسامة يغازل فمه الدقيق، وفي صمتٍ رقيق مددتُ بصري نحوه ، وكان

الزجاجُ حائطاً حائلاً بيننا ...

فرحتُ حيث زوجتي ترقد في إعياء كمن يشرف على الموت، ربتُ عليها مُطمئنها؛ ففترفمُها بميلاد ابتسامة حُبلى، بينما طفرتْ عيناها بالدموع، لاتدري ولا أدري كأنما سحائبُ صيفٍ خلفها خيولٌ تقدحُ بحوافرها شرراً، مُخلفةٌ غُباراً ضاعتْ فيه الرؤية .

خرجتُ أتلصصُ موضعه لعلي أُلقي إليه بنظرةٍ تُطفئ لهيبَ قلبٍ مُشتعلٍ؛ ولكنما خطفتهُ أُمُهُ بين فكيها وطارتْ بهِ لأرض الوطن، بينما كنتُ أحلقُ ضمن أسراب حمائم تكلى، تحومُ في الفضاء وتجوبُ آفاق السماء ، لعلها تُسقطُ محاجرها على جثمانِ طفلٍ صارفي زمن اختطافهِ شاباً يافعاً مُمدداً، أبى الغُربةَ مرقداً له، وراحَ يتدثر بين دموع وآهات الأهل والأحباب، ينظر إلى السماء سعيداً مُنتشياً، تُباركه حُور العين، وتشدُ أذرهُ . راحَ يبحثُ عن أبٍ صار قلبُهُ في مناقر طيورٍ جارحةٍ ضلت أسرابُها بين خرائط ممزقةٍ بثيابٍ زرقاء، تحكمها قُضبان حديدية، لاتعرفُ معنى للحنين ولا للبكاء .

عادَ ولدي حيثُ وُضعَ بذرةٌ، لينمو شجرةً وارفةً تستظل تحتها أمٌ نذرتْ للرحمن روحها؛ لتمنحهُ الحياةَ يوماً، وأبٌ ضاعَ مصيرهُ بينَ أسرابِ طيورٍ جارحةٍ ضلتْ مساربُها بين خرئط هجرتها الممزقة في عنانِ السماءِ .. !!

٢٠١٩/٨/٢م

الحُلـــمُ الأسطـــوريُّ
The legendary dream

«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»

{ البقرة: ١٥٥-١٥٧}

نسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته، وأن يسكنه الفردوس الأعلى من الجنه، وأن يكون شفيعاً لوالديه ومحبيه (يوم القيامة).

الحلم الأسطوري

كنتُ كُلَّما جئتُ من سفري، لم يُعرْني الأهلُ والناسُ اهتماماً مثلما رأيتُ اليومَ، فحينما خرجتُ عُنوةً من أرض المطار، وخُتمَ جوازُ سفري ولم أُبصره؛ وجدتُ حُشوداً من البشَرِ، تتماوجُ تماوجَ الأمواجِ العاتية في عُرضِ البحر الواسعِ الشَّاسِعِ، في يومٍ ماطرٍ ريحهُ هوجاء.

ومن شدة فرحهم أو غضبهم أو حزنهم. لستُ أدري. حملوني على الأعناق وأبثكم سِراً كنتُ سَعيداً ومنتشياً، أحسستُ بكياني وإنني لم أعد طفلاً بل أصبحتُ رجلاً وبطلاً هُماماً يُشارُ إليهِ بالبنان، تذكرتُ إنني لم أتمم حُلمي الذي كان يراودني يوماً، ولكن عنجهية الاستقبال حشرت في نفسي تلكَ الرؤى والأوهام، بأنني لا تعد لي حاجةٌ من الدراسةِ والتعبِ والنصبِ والمذاكرة، وغضب أبي المتكرر ونذق أمي التي طالما وبختني،قائلة:

- لماذا لم تذاكر لتكن مثل فلان وفلان .

استشعرتُ بكياني عند هذا اللقاء الحاشد، كنتُ أسمع لهم همهمات ودعوات وصلوات وتبريكات؛ فأدركتُ أن البطل له قيمة كُبرى، ويُستقبل دائماً هكذا ..

حاولتُ بتململي وانحنائي وتمددي، أن أُلطفَ بهم وأن أشاركهم الحدث، ولكنهم كانوا دائماً يحرصون على راحتي، كانتْ تكلُ أيادي البعض، وتتسابق أيادٍ أُخرى تلتقطني، وأنا البطل المُتوج فوقَ الرؤوس أنظرُ إليهم من عالٍ، جموعٌ تتزاحم وتتداخل وقد ضاقتْ بهم الطُرقات وسُدتْ بهم عين الشمس، وأضحكُ في نفسي مُتسائلاً:

- ماذا حققتُ من مجدٍ لهذا المهرجان الاستقبالي الحافل .

لو كُنْتُ أعلمُ مايحدث لي من هذا الاستقبال الأسطوري؛ لحققتُ

هذا الحُلمَ مُنذُ زمنٍ بعيدٍ، ولكن طمأنتُ نفسي «لكل أجلٍ كتاب»، فهأنذا اليوم حققتُ مالم يحققه مَنْ حصل أعلى الشهادات والمراتب والمناصب ..

تذكرتُ من الشخصيات التاريخية التي كان يُدَرِّسُهَا لي أبي، ذلك الأسطوري «الإسكندر الأكبر» الذي كان يُشبهني وسامةً، وفي مثل سني العشرين، الذي تَمَّلَكَ الأفئدةَ بفُتوحاتهِ الهائلة بسبب عبقريته، وكانت بداية «روبسبير» الرائعة والذي تبنى مبادئ ثورته الشهيرة في فرنسا « العدل والحرية والمساواة»: فالتَّفَ الشعبُ تحته كما التف تحتي .. إنني أتخلى عن هذا المجد المُزيف ، فالمجدُ هو رضى ربي وجنة الخُلد، وأن أكون شفيعاً لأبي وأمي وأخوتي يوم الدين .. إني مُنْتَظِرُكُمْ فلا تقلقوا ..!!

صمتُ حين صمتوا، وتوقفتُ حينما توقفوا عن النهنهات وأنزلوني، وهاهم يركضون ويصطفون صفوفاً مُنتظمةً، منتصبةً قاماتُهم، يرفعون أكفهم إلى آذانهم، وكانت قطرات رحماتهم تتنزلُ عليّ، فتغسلني بالماءِ والبَرَدِ، كما يُغسلُ الثوبُ الأبيضُ من الدَّنسِ، أرضعوني دعواتهم ورحماتهم، وعادوا لما كانوا عليه وجدتُ نفسي مرةً أخرى فوق رؤوسهم؛ فملأني العُجبُ بنفسي واحتفالهم بي .

وأخذتُ أتمددُ وأتمددُ حتى انحشرتْ رأسي بين جدران بيتي الضيق، فكأنهم أدركوا ذلك؛ فأنزلوني على عجلٍ وفتحوا بابه، وأدخلوني بيتاً واسعاً يليقُ بتمددي كيفما أشاء، وأقفلوا عليّ وتركوني أتمددُ حتى انفجرتُ؛ عندها أدركتُ إنني كُنتُ مُلغماً بالأوهامِ ....!!

حيتانُ البحر
Sea whales

ويأبى الوفاء عليه اندِمـــالا ويأبى التذكرُ أنْ يُشفِقا
شكا أسرَه في حبال الهـــوى وود على الله أنْ يُعتَقا
فلما فضى الحظُّ فكَّ الأسيـ ـرحـــنَّ إلى أسرهِ مُطلقا

إبراهيم ناجي

حِيْتَانُ البَحْرِ

كَانَ فَتىً عِصَامِيّاً مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِ، رَضِيَ بالذُّلِ والهَوانِ في سَبيلِ تَحْقِيقِ ذَاتِهِ، طَحَنَ الصَّبرَ مَسْحُوقاً وتَنَاوَلَهُ بمِلْعَقةِ الألمِ، حِينَمَا قَرَرَ أنْ يَمْتَطِي صَهْوةَ السَّفَرِ للمجهولِ، رَكِبَ سَفينةَ الأملِ وراحتْ تَشُقُ عُبابَ بَحرِ الأحزانِ، فمِجْدَافاهُ الصَّبرُ والجَلدُ ..

صَقرٌ نَشَرَ جَنَاحيهِ عَلى مَفْرقِ رأسِهِ، وهو في عُرضِ البَحرِ، يَصْرُخُ مُتحدياً نفسَهُ ووطنَهُ، إما أن يكونَ أولا يكون، بينما أمواجُهُ تبتلعُ هذا الصُرَاخَ بجوفِهِ، تتعلمُ منهُ، كيفَ يتحدى المِشطُ الصَّغيرُ أمَهُ وأبيهِ، إنْ فكرا أن يلتقماهُ وهو في ظُلماتِ قَاعهِ .

تعلمتْ منهُ الأسماكُ طُوالَ الرِحلةِ، والتي عاشتْ فيه أزماناً دونَ أنْ تتعلمَ مِن بعضِهَا شَيئاً، فقانُونُهم وفقَ قَانونِ الغَابِ الذي يأكلُ فيهِ الكبيرُ الصَّغيرَ، ويموتُ المريضُ فتَمُجُهُ أمواجُهُ العَاتيةُ نحوَ الشَّاطيء؛ ليكونَ لُقْمَةً سَائغةً تلتقطَهُ النوارسُ وهي سعيدة . فيستشعر بموتهِ مازالَ لَهُ قيمةٌ ..

أسماكُهُ تتعاركُ في أعماقِهِ، بينما هو فوقَ السَّفينةِ يجذبُهُ حَبلان أحدهُمَا الأملُ المفقودُ، والثاني المجهولُ الذي ينتظرُهُ وراءَ البحرِ، كانتْ أولُ رحلةٍ لهُ عبرَ هذا المُحيطِ بحثاً عن مستقبلٍ ضَائعٍ مُؤقتٍ، يبحثُ عَنْهُ مَا يُعَبئهُ لِمُستقبلٍ دَائمٍ .

كانَ تِلْميذاً حَدثاً في العشرين مِن عُمرِهِ، لَمْ يُنفقْ عَليهِ أحدٌ، ماتَ أبوهُ طِفلاً، وأمُهُ لا تملكُ إلا ثوبَهَا الذي تَمْسَحُ بكُمهِ دموعَهَا، كُلّمَا رَأتْهُ يُصارعُ الحياةَ بفقرِهِ مِن أجلِ أنْ يكونَ، تُغبطَهُ وتشفقُ عليهِ ظَانةً، بأنَّهُ لا يعلمُ شَيئاً عَنْ فَقْرِ الحَياةِ، بينمَا كَانَ يَطْحَنُهُ فِكرُ فَقْرِهَا اللعِين .

لفظَهُ البحرُ للشاطيء على الجانبِ الآخرِ، وركبَ سِرْفِيسَاً مُتجهاً

إلى (عَمَّان) تلك العَاصمةُ الأردنيةُ الرابضَةُ في أحضانِ الجِبَالِ والتلالِ، نزلَ بموقفِهَا يُناظرُ مَا حولَهُ، بَلدةٌ غَريبةٌ، ومبانٍ متفرقةٌ وجبالٌ شاهقةٌ، تحيطُ بهِ مِن كُلِ مَكَانٍ، وتحتضنُ البيوتَ والعمرانَ .

تلفتَ حَولَهُ فَوجَدَ سَاحَةً لمسجدٍ كَبيرٍ رائعِ البِنَاءِ، اتجَه صَوْبَهُ، وكانَ قُبيلِ إشرَاقةِ الشَّمسِ، إنَّهُ (مَسجِدُ الحُسينِ)، دَخَلَ بعدمَا خَلعَ نَعْلَيهِ وَتَوضأَ وَصَلى الصُّبحَ ركعتين، ثُمَ خَرجَ يَتَأبطُ حِذَاءَهُ وحَقِيبَتَهُ، وبعضَ الدَّنَانيرِ المَدْسُوسةِ في مَخبَأهِ السِّري، وقروشاً فِضّيةً .

أشْرَقَتْ الشَّمسُ بثَوبِهَا الأخَاذ، ودبتْ الحَيَاةُ في كُلِ شَيء: فَبدأتْ تتنفسُ، وبَدأ النَّاسُ يبحثونَ عَن أرزاقِهم في الطُرقاتِ، وبينَ الأزِقَةِ، وكانَ نِداءُ السِّرفِيسِ أكبرُ نِداءً، يبحثُ هو الآخرُ عَن راكبٍ مِن أجلِ الرِّزقِ، صَعدَ وهبطَ في المحطةِ التَاليةِ، إنَّهَا (سَاحَةُ مَوقفِ العَبدَلي).

فيه تجدُ حَرَكَةً غريبةً متداخلةً بينَ الرجالِ والنِسَاءِ والعُمَالِ، كُلٌ يُريدُ أنْ يَشُقَ طَرِيقَهُ نَحوَ حَافلةٍ تَتجِهُ بِهِ إلى وِجْهَتِهِ، بينمَا يَصطفُ على جَانبيهِ باعةُ الخُبزِوالبَيضِ والأجْبَانِ .

ابْتَاعَ الفتى رغيفَ خُبزٍوبيضةً، ومنحَهُ البائعُ رَشَةَ مِلحٍ فَوْقَ المُبتاعِ، فانتقَدَهُ بعَشرةِ قُروشٍ أردني، ثُمَ تناولَ طَعامَهُ على عَجَلٍ وشَربَ كُوباً مِن الشَّاي، ولمْ يعرفْ وُجْهَةً هو مُولِيهَا، وأيّ طَرِيقٍ يَسْلُكَ، وأيّ مَدينةٍ يقْصِدُهَا، وأيّ حافلةٍ يختارُهَا .. كَانَ مُشتتَ الفكرِلَمْ يعرفْ شيئاً عَن أيّ شَيءٍ سِوى إنه غَرِيبٌ لَفَظَهُ البَحْرُ للشَاطِيء كَمَا يَلْفُظُ أسْمَاكَهُ المَيتَةَ ..

تعْضُهُ الأسئلةُ، وتُناوشُهُ الأوهامُ، وتَطْحَنَهُ الظُنُونُ وَسَطِ هَذا المَجْهولِ، الّذِي لَفَهُ بِشِباكهِ بينَ يأسٍ ورجاءٍ، بين أملٍ مَشنُوقٍ ووطنٍ يَئِدُ أبناءهُ مَتى يَخْرجونَ مِن رَحِمهِ المُترعِ بالهمومِ .

صَرَخَ بُوقُ بَاصٍ مُتجهاً إلى (إربد)، فاحتَضَنَ أَمْرَهُ وتَقنْفذَ فِي بَطْنِهِ وجَلسَ مُتكئاً، ودفعَ أُجْرَتَهُ حَاملاً حَقيبَتَهُ عَلى رُكْبَتيهِ، وعيناهُ كَميراتَان تَرصُدان الداخلَ والخارجَ، تَنْتَشِي نَفْسُهُ حِيناً، وتُفْزِعُهُ غُصَّةٌ أحياناً،

حِينما يَرى نَفْسَهُ مُسَافراً جَوْفَ المَجْهُولِ ...

قطعَ حُلمَهُ المُؤقت، وعَادَ إلى حُلمِهِ الأكبر، جَاءَ يحملُ فِي جُعبتِهِ الألمَ وفِي يَدِهِ حقيبةُ ملابسِهِ، وبَهَا دَفترٌوقَلمٌ وكِتَابٌ، كانَ يَقرأ فيهِ طُولَ رِحْلَتِهِ، كيفَ جَابَهَ السِّندبادُ الأمواجَ العَاتيةَ وحَققَ حُلمًا كَانَ يُرَاودُهُ .

تأتي حِيتَانُهُ فتُخرجُ رؤوسَهَا للهواءِ، وتُنكِسُهَا في المَاءِ، فاتحةً زَعَانفِهَا كَمراوحٍ يَابانيةٍ، ولَمْ تَكفْ عَن لَعِبِهَا، بينمَا كانَ يُناظرُهَا مُغتبطاً مُتناسياً هُمُومَهُ ومَا قَرأهُ عَنْ السِندبادِ، والسفينةُ تَمخُرُ عُبابَهُ، لمْ يترءى لَهُ سِوى صَفحةٍ فِضِيّةٍ مَصْقُولةٍ، عليها أحرفٌ هيروغليفية، لم تَفُكْ رُمُوزَهَا سِوى الشَّمسِ حينما أرسلتْ أشعتَهَا العَموديةِ، بينمَا زَبدُ البَحرِ خلفَهَا يَشُقُ طَريقاً أبيضَ ناصعاً .

متى استوتْ في مرساها، واطلقتْ صفاراتُ نذيرٍ بالوصُولِ، أخذَ يلملمُ أشتاتهُ المُبعثرة، وعادتْ الحيتانُ للقاعِ، وقذفتْ السَّفينةُ بهِ خَارجَ رَحمِهَا للوطنِ المَشْنوقِ بِأبنائهِ .

فرّتْ دمْعَةٌ من مُقلتيهِ على نفسهِ، وفراقِ صُحبةٍ حَرَسَتْهُ مِن سِبَاعِ البَحرِ حَتَى وَصَلَ .. وعَادَ إلى هَديرِ عَجَلةِ الحَياةِ، شَغُوفَاً بأنْ يُعاودَ الرِّحْلَةَ؛ ليُقَابِلَ أصْدِقَاءَهَ حِيتانَ البَحْرِ.. !!

الثــوبُ الأبيضُ
The white dress

«وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا»

{الإسراء ٢٤}

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»

{ الطور: ٢١}

الثوب الأبيض

(١)

قالوا: إن أمي ارتدَتْ في حياتها ثلاثةَ أثواب فقط. ثوبان أبيضان ناصعان جدًّا، وثوب أسود ناصع. ولكن في بعض الأحيان لم يكن ناصعًا جدًّا - حقًّا، منذ أن ولدتُ لم أرَ أمي ترتدي إلا ثوبين فقط. كان الأول أسود طوالَ حياتها، وكان الأبيض لوقت قصير، ولم أر الثوب الأبيض الآخر!

عاشت أمي طويلاً، كلما جلست في البيت ارتدَت ثوبًا لونه أسود، وكلما خرجت لبستْ ذاك الثوب الأسود، وتلحَّفت بملاية سوداء، وإذا كانت في الصلاة ارتدَتْ ذاك الثوب الأسود، وتلحَّفت بلحاف أبيض، عاشت أمي زمنًا طويلاً، لكن مهما كان طويلًا فقد كان قصيرًا جدًّا، يا إلهي، كم هي الحياة قصيرة مهما طالتْ؟! كانت أمي تهشُّ وتضحك بابتسامة حلوة، أعرِفُ مغزاها، كانت تقول: «يا بني.. سنأخذ زمننا وزمن غيرنا!».

وكنت أقول لها: «يعني إيه يا حاجّة؟». وأفركُ منخارها بين إصبعي فركًا خفيفًا يدل على عمق الحب بيني وبينها، فتشتاطُ حبًّا، وتقول: إيدك يا ولد، فأضحك، وتضحك.

وتقول: متى يجيء الموت؟

فأقول لها: بعيد الشر عنك يا حبيبتي!

فتكرر مقولتها: «الحمد لله، سنأخذ زمننا وزمن غيرنا».

كانت تقولها والله بكل صدق وإخلاص، دون خوف، أو وَجَل، أو

تمثيل، أو رياء، واثقة من نفسها، متيقِّنةً بكل صدق مقابلة ربها، ليس هربًا ونزقًا من الحياة، تلك الصائمة القائمة العابدة، التي لم تترك فرضًا للصلاة، من صلاة الفجر، ولا تنام إلا إذا صلَّت العشاء.

كنت أرتشف الشاي - وأنا جالس بجوارها - وأفكِّر في معاني كلامها، ويسرح خيالي، ويرد عقلي الباطن: يا رب، أطل لنا في عمر أمي.. كانت هذه الكلمات في نفسي كالبركان، وكانت عيني ترمقُها من شعرها إلى أخمص قدميها - وهي تشرب الشاي فاترةً مبتسمة الثغر، غير عابئة بما قالت، وما يعتمل في نفسي وصدري لما قد قالت.

أقسم لكم، لم أرَ أمي إلا في الثوب الأبيض الناصع جدًّا، ذلك الذي حملتُها به على أكتافي، وعلى هاتين اليدين اللتين سيأكلهما الدود، وهي ممددة بين يدي ربها سبحانه، ووسَّدتها الترابَ في قبرها بعدما فكَكْتُ الأربطة، وكشفت عن وجه - والله كفلقِ الصبح - كأنه القمر ليلة البدر، وقد تركتُها بين يدي ربها، بعدما ودعتُها بقبلتين حارَّتين على جبينها الوضَّاء، وقبَّلْتُ يديها، وزدت في حبي، ففركتُ منخارَها بين إصبعي فركًا محبَّبًا خفيفًا، كما كنت أصنع معها في الحياة الدنيا؛ إيقانًا مني بأنه الوداع الأخير! هممت بالخروج مُلوِّحًا بكلتا يدي، وعيناي تذرفان الدمعَ على قبلة الوداع، تاركًا المكان لقدوم الملكين ..!

(٢)

وخرجت من تحت أطباق الثرى، وما زال السؤال يعضني، قالوا لي: إن أمَّك لم ترتدِ في حياتها إلا ثلاثة أثواب، الأول والثاني أبيضان ناصعان جدًّا جدًّا، والآخر أسود، ولكن في بعض الأحيان يكون ناصعًا جدًّا.

قلت وتساءلت: الثوب الأسود عَهِدْتُه وعشتُ معه طوال عمري، والثوب الأبيض ها قد ودَّعْتُها فيه الآن، وكان حقًّا أبيضَ ناصعًا جدًّا جدًّا ورائحته زكية.

فسألت خالي بعدما رجعت إلى البيت - ونحن نتقبَّل العزاء - ذلك السؤال: من الناس الذين قد جاؤوا فرادى وجماعات لمواساتنا؟ فأمال عليَّ وقد فرَّتْ دمعتان ساخنتان من عينيه، من قال لك فقد نسي ثوبًا أبيض آخر، كان لا يقل عن الثوبين الأبيضين الآخرين بحال، وكانت رائحتُه زكية، وما زلت أحتفظ به إلى الآن، وسأعطيك إياه.

أحسست بأن كنوز الدنيا ستأتيني، وجلست مع خالي، وقال: يا سيدُ، أمُّك رحمها الله قد ارتدَتْ ثلاثة أثواب بيضاء - وليس ثوبين أبيضين فقط - وثوبًا أسود، فقلت له: ها هو الثوب الأسود أعرفُه جيدًا، وثوب أبيض تركتُها فيه عند ربها، فما هما الثوبان الأبيضان الآخران يا خالي؟!

قال: أما الثوبان الأبيضان الآخران، فهما: الثوب الأبيض الأول، ارتدته ليلةَ زفافها على أبيك رحمهما الله، وأما الثوب الأبيض الثاني، فكان يوم ذهابها للمسجد النبوي عند حجها، وأما الثوب الأبيض الثالث فالذي رأيتَه يا بني، قابلتْ به ربَّها.

فكففت عن السؤال، ولم أكفَّ عن الدمع المدرار.. !!

بائعـــةُ الجَرجـير
Watercress seller

اقعدها البرد والظلام حتى الصباح .. رآها المارة في الصباح الباكر، ممددة على قارعة الطريق لا حراك فيها، يكسوها الثلج .. بينما الرِّياحُ ألقت قفتها بعيدًا عنها في قارعة الطريق ....!!

بائعة الجرجير

حملت قفة الجرجير، وخرجت من البيت، يوم الجمعة الساعة التاسعة صباحًا .. جلستْ القُرفصاء واضعة قفتها التي رصت رُبط الجرجير الأخضر اليانع رصًا مبهرًا وجذابًا: ليقبل عليه كل من يمر في ذلك الصباح ..

كانت تجلس عند دكان وسط الحارة في الشارع العام، قالت لها أمها :

. انتبهي يا سعدية للجرجير، ومفيش حد يضحك عليكِ .. ولي الفلوس وأوعي حد يسرقك، عايزين الفلوس، علشان ندفع لأخيك فلوس الدرس، أحسن المدرس فضحنا يا بنتي، كل يوم يضرب أخاكِ، ويبعت لينا مرسال ..

وافقت سعدية أمها ونادت على الجرجير بأعلى صوتها :

الجرجير الأخضر.. الورور .

أقبل عليها المشترون، نساء، وأطفال، وشباب، ورجال .

.بكم رابطة الجرجير يا بنت، ناداها الأفندي .

.الرابطة بنص جنيه .. يا أفندي .

.ما تديني ٣ ربط بجنيه .. إيه رأيك ؟

.حاضر.. ياسدنا الأفندي ..

كان الأفندي بركات .. ينظر إلى الفتاة نظرات الطامع في وجهها الصبوح، قائلاً:

.اسمك إيه يا عروسه؟ ..

.عروسة !!! .. إنت عايز إيه يا أفندي؟ هات الجنيه .. وخد الجرجير.. واكشفنا ..أنا مش فاضية .

وكأنما أدركت الفتاة ما دار بخلد الأفندي بإدراك الأنثى التي لا تُخطيء الإدراك والظن .

نظر إليها بغيظ، وأدار ظهره وراح لحال سبيله حتى ابتلعته الحاره بين بيوتها القديمة.

. مالك يا سعدية ؟ .. بتبهي في الأفندي كده ليه !!!

. يا أخت ما أنت شايفاه .. عمال يتغمز .. ويبحلقلي بعينه إلّي تنفخت .

ضحكت زينب .. وربتت على كتفها وهي قائمة، قائلة :

. والله كبرتي يا سعدية .. وفهمتِ الرجالة .

بينما سعدية منهمكة مع زينب في الحديث، وحرصها الشديد على بيع الجرجير، وجمع النقود والحفاظ عليها لدفعها لمدرس أخيها أحمد الذي كان يأخذ درسًا عنده .. مرَّرجل يحمل فوق ظهره صندوقًا طويلاً من الخشب والذي تكسوه كسوة من القماش .. ووقف في الميدان ونصب الصندوق الطويل وتدثر داخله، وأخرج منه دميتين، دمية فتاة .. والأخرى دمية شاب يلبس طرطورًا ملونًا عليه بعض النقوش الصبيانية، بدأ الفتى يحدث الفتاة بكلام غزل ناعم، وتتكسر له الفتاة في دلال، وقد احتدم صراع الحب بين أبي عرقوص والفتاة .. وكأنما هي ملحمة عنترة وعبلة، أو ملحمة هُوميروس .. أصوات رنانة وحوار ساخن .. التف الأولاد حلقات حول (أبو عرقوص) ينظرون إليه متأملين، متسائلين كيف يحرك طرطوره؟ ويتكلم وهو طول الثلاثة أصبع فقط، ويقبل على عبلة وهي تهرب منه وتتكسر له في دلال الأنثى المفعمة بالحب والدلال .

جذبت سعدية الفُرجةُ .. فنهضت وتركت قفتها وما بها من جرجير أخضر يانع، مطمئنة نفسها بأنها ستعود بسرعة .. وحينما أقبلت وانضمت في الدوائر الملتفة حول أبي عرقوص مثل بقية الأطفال، أقبلت ترى وتشاهد وتسمع وتتمتع بأبي عرقوص .. وجذبها الصوت

والغناء وضرب الصيجان، وتكسر الفتاة له .. نسيت قفتها وجرجيرها الأخضر اليانع، بينما هي كذلك، أقبل شاب يركب حماره القمن، وقف هو الآخر ينظر ويتابع المشهد الدرامي لأبي عرقوص والفتاة المتكسرة، فاغرًا فاه ضاحكةً عيناه ..

جذبه المشهد فنزل عن حماره وأقبل وبيده عصاه (النكد) التي إن حرن حماره أشبعه بها ضربًا، اندس بين الأطفال يسمع ويشاهد عن قرب، مصدقًا ذلك وكأنه مشهد حقيقي وأن أبا عرقوص شخصية حقيقية قد سخطها الله، فهي تتحدث وتغني وتتحرك .. نسي حماره .. كما نسيت سعدية قفتها وما بها من رُبط الجرجير الأخضر اليانع .. فما كان من الحمار إلا أن تحرك بحرية مطلقة، وأخذ يشمشم في الأرض يبحث عن عشب ذابل أو جاف ملقًى على الأرض؛ ليطعمه، وهو في شمشمته وصل إلى قفة سعدية، وما بها من جرجير أخضر يانع، فغافل الواقفين، ودس رأسه في القفة يأكل الجرجيرَ مغمغمًا، وظل يأكل ويأكل، حتى جاء على آخره وشبع تمامًا .. فما كان منه إلا أن نهق عدة نهقات متواليات .. وكأنما أراد أن يُعَبِّرَ عن فرحه، ليس لمشاهدة أبي عرقوص، وإنما لشبعه وامتلاء بطنه تمامًا .. هنا توقف (أبوعرقوص) وانتهت الرواية، فخرج الرجل المندس داخل الصندوق الخشبي الطويل الممتد، وأطبق أضلاع الصندوق، بعدما أدخل (أبا عرقوص)وفتاته داخله، وحمله على ظهره وساروتفرق الجمع .. وتبعه بعض الصبية والفتيات لعرض المسرحية في مكان آخر...

عادت سعدية إلى قفتها فوجدتها فارغة تمامًا من الجرجير.. وركب الشاب حماره وتبع (أبا عرقوص) يحلم بقصة المسرحية متمتعًا بما رآه، كما تمتع حماره بأكل الجرجير الأخضر اليانع، كان يهز رجليه وهو راكب حماره القمن مبتسمًا هاشًا، كما كان حماره فرحًا منتشيًا متحركًا غير متباطئ .. !!

بينما سعدية تكورتْ على نفسها، ووضعتْ رأسها بين ركبتيها، فقد

ضاعَ حلم أمها، ولم يأخذ المدرس ما له، ولسوف يرسل المراسيل، ويفضحهم لعدم تسديد فلوس الدرس، لعنتْ أبا عرقوص، كما لعنت فتاته .. وظلت قابعةً لا تكلم أحدًا، حتى غَشِيَ الظلامُ القرية، ونامتْ وكلما مَرَّ الناسُ نظروا إليها مشفقين .. اقعدها البرد والظلام حتى الصباح .. رآها المارة في الصباح الباكر، ممددة على قارعة الطريق لا حراك فيها، يكسوها الثلج .. بينما الرِّياحُ ألقت قفتها بعيدًا عنها في قارعة الطريق ....!!

بائعـــةُ الفِئران
The mice seller

رُبَّ ضارةٍ نافعةٍ

ولـرُبَّ نازلةٍ يضيق بهـــــا الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكان يظنها لا تُفـــرجُ

الإمام الشافعي

بائعةُ الفئرانِ

أدركت صاحبة البيت الحاجة بهية، أن طعامها ينقص، وليس معها أحد، تحسست كل مكان الأرض والجدران، وما أن رأت جحراً؛ تيقنت أن هناك من يعيش معها في حجرتها، أرواح شريرة تسرق طعامها ليلا وتقرض ثيابها .

بعدما عسعس الليل وعلى حين غفلة استرق سمعها حركة ليلية، فتسحبت معتمدة على عصاة غليظة تعتمد عليها كلما غدت وراحت، دفعت الباب بقدمها بتؤدةٍ؛ فازدادت الحركة، كأنما جيش جرار فرَّ هارباً داخل خنادقه خوفاً من خطر قادم .

دلفت وهي تتوجس خيفة، ويطحنها الألم طحناً، فهي تتذكر نقص الأطعمة وقرض ملابسها؛ فتأكلها الحسرة ، تأكد لها أن هذه جحور فئران حينما لمحت ذيلَ فأرٍ ينسحب داخل جحر.

عادت إلى مخدعها، والألم يعتصرها عصراً، تكذ على أنيابها، واضعة رأسها بين كفيها تفكر وتفكر، تتساءلُ : كيف الخلاص من هذه الجيوش الجرارة، والتي اتخذت من جحورها سكنات عسكرية محكمة ؟

السيدة بهية نقص من عمرها سبعون سنة، لاتمتلك من حطام الدنيا شيئاً غير حجرة ذات طرقة مؤدية إلى الباب الخارجي، ونهايتها حمام، وليس عندها من الأبناء ما يغنيها عن السؤال، وهي لا تسأل الناسَ إلحافاً، ولكن يغدق عليها كل من له قلب وألقى السمع وهو شهيد ...

اهتدت لفكرة وهي أن تقفل هذه الجحور بخرقٍ بالية من بقايا أثمالها المتهالكة وما أكثرها، وارتاح بالها بعدما قفلت فوهاتها كلها،

وقد تصبب عرق جبينها، وامتقع لونها وتناثر شعرها الأبيض، وجلست أرضاً ، قائلة : لعنة الله على الفئران .

دخلت حجرتها صباحا، وكان الاطمئنان يحيط بها من كل جانب، وبينما هي تدلف للداخل، سبقها سمعُها يتحسس أي حركةٍ، وامتد بصرها يستكشف أثمالها في فوهات الجحور التي كلت وملت في إغلاقها، وإذ تسمع جرجرة وحركة أكبر من ذي قبل ، وتجد أثمالها خارج الجحور، فكانت مُفتحة فوهاتها تبتلع أي شيْ: فاهتزت العصا إثر ارتعاشةٍ تملكت يدها وسقطت أرضاً .

شرعت تتحسس كلَّ شيء، فالطعام كله قد نفد سوى قطع مما كان صلباً منه، وملابسها صارت أثملا مقطعة تفترش الأرض بعدما كانت معلقة على حبلٍ مشدودٍ في ركن غرفتها .. جلست باكية حزينة آسفة على الخراب الذي حل بكل شيء تملكه ، وما جادت به أيادي الخيرين من الناس .

جاءتها سعدية كعادتها ، وكانت جارة لها ، تسأل عنها كل فينة وأخرى ، فوجدتها حاسرة باكية ، تذرف عيناها المسهدتان ؛ فأوجفت خيفةً قائلة :

- ماذا بكِ ؟ أأصابكِ شيء ؟!

فَعَلَا بكاؤها وازداد نحيبها، وغمغمت بكلماتٍ غير مفهومةٍ، وما لقطت أذناها سوى (ذيل طويل ينسحب داخل جحر) ، فقالت في نفسها :

- ماذا أصابها ؟ أأصابها مسٌّ بعقلها ؟ .. ورددت : ذيل طويل ينسحب داخل جحر... !!

فسألتها : ذيلٌ، أيُّ ذيلٍ .. !!

فردت بامتعاض : يعني حيكون ذيل إيه ... ذيل بقرة ؟!

جحظت عيناها ، وآثرت التحدث بعينها فقط .. وحدثت نفسها :

- بقرة داخل جحر.... !

نهضت سعدية وقدمت ما جاءت به من أطعمةٍ ، رغبة في الانصراف .. فأبت أن تأخذ شيئاً !.

تساءلت في غضبٍ : لماذا ؟!

قالت : لأن الفئران ستأكلها كلها .. !

فضربت على صدرها قائلة :

- فئران .. أعندكِ فئران ؟!

- قالت : ألم ترين ثيابي ممزقة، ادخلي الحجرةَ وشاهدي بنفسكِ ؟

وما أن فتحت سعدية بابها سمعت الركض والجري؛ فأوجفت خائفة (فأوجست في نفسها خيفة)، وقفلت مهرولةً. وقد أشارت عليها بأن تأتي إليها بمصيدة فئران ، وساعدتها في وضعها بالحجرةِ مفتوح بابها ، وبداخلها طعمٌ ، ليلاً ...

وفي الصباح تفقدتها، وقد جحظت عيناها متسائلة : لقد ملئت عن آخرها ، وأشد ما أدهش الحاجة بهية أن وجدت داخلها فئراناً بيضاء، حسبتها أرانب في باديء الأمر ؛ فندتْ منها صرخة استغاثة تحمل في طياتها الفرح والحُزنَ معاً، إنها أرانب ولكن لاتختلف عن الفئران سوى لونها أبيض ، فذيولها طويلة ممتدة خارج قضبان المصيدة .

علمت سعدية بالخبر .. فأطلقت على فئران الحاجة بهية : « فئران بهية البيضاء « وشاع الخبر بأن الحاجة بهية لديها فئران بيضاء، فصار الناس يتندرون ويتضاحكون، ووصل الخبرُ لطبيبة القرية ، فما كان إلا أن اتصلت مبلغة مركز البحوث بكلية الطب؛ فجاءوا وحملوا المصيدة وما فيها وأنقدوها مبلغاً من المال ... ! وأعطوها خمس عشرة مَصيدة، واتفقوا معها على أسعارها، وأخذت تُساومهم في أثمانها .. !!

إلى جـــــدَّتي

To my grandmother

حكمة الآباء يتوارثها الأبناء:

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا».

{البقرة ٢٦٩}

إلى جَدَّتي

كلما ذهبتُ إلى جَدَّتي في بيتها العتيق ليلاً تهشُّ في وجهي، وتُمطرُني بالقُبُلات في كلّ أنحاء جسمي، فكان همُّها أن تضمَّني في حَجْرها، وتقبّلني أينَما صادفها التقبيلُ؛ فجدتي لم تُبصِرْ منذ زمن بعيد، كان النورُ يَشعُّ من وجهها حينما أنظر إليها، فهي تتعدَّى الثمانين من عمرها، ولم أتجاوز الثامنةَ من عمري، وكنتُ شَغوفًا بها، ومُشفقًا عليها، كان هناك سرٌّعميق من الحب محفورٌ في أعماق نفسي وقلبي تجاهها!

سألتُ نفسي مرارًا: لماذا أحبُّ جدتي ملءَ قلبي؟

الحقيقة كنت شغوفًا جدًّا بسماع قصص جدتي، كانت تغلِّفُها بشيء من الفكاهة، وتقلِّد الأصوات. كانت تقول: (افتح يا ولد باب المغارة...!) كنت حينما أسمعُها وهي تقول تلك الجملة ومَثيلاتها، أحسُّ بأن المتكلِّم ماردٌ جبَّار، وليست جدتي العجوزَ الواهنة، والتي تُشبِهُ العُرجونَ القديم حينما تقفُ.

لحظاتٍ وأسمعها كأنما هي (سندريلا) البحر، بصوتها الرقيق الناعم، حينما تقول: (نم يا صغيري)، (توته توته خلصت الحدوته) فأضحكُ، وتضحكُ حتى تظهر نواجذُنا!

كانت كلما قصَّت عليَّ قصةً تسألني: ماذا استفدتَ منها؟

فإذا لم أُجبْها، أو كانت إجاباتي خاطئة، ذكرَت ذلك لأبي، وادَّعت قائلة له بأن ابنك غبيٌّ، لا يفهم من الدروس شيئًا! كانت قصصُها عن السيرة النبوية وعن التراث العربي، حفظتُ كثيرًا من الأشعار، وعرَفت من خلالها شجاعةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه الكرام، كما عرفتُ الغزوات.

كانت جَدتي موسوعةً كدائرة المعارف البريطانيَّة، لم تترك شاردةً أو واردة إلا عرَفَتها بحبٍّ وتمجيد وتمعُّنٍ، سألَتني مرةً: مَن هو صلاح الدين

الأيوبي؟

تلعثَمْتُ، فقالت: أليس هو مَن حرَّر الأقصى من أيادي اليهود؟!

تعجبتُ لجدتي، وحسبتها مدرِّسة تاريخ الصف، أو هي سفيرة فوق العادة...

سألتها:

- مَن علَّمكِ هذا يا جدتي، وأنت لا تُبصرين، ولم تذهبي للمدرسة؟!

- يا بني، هذا هو التاريخ، ومَن لم يعرف تاريخَه لم يعرف أصلَه! جدتي فيلسوفة، ولم أدرِ!

قلت: زيديني يا جدتي.

قالت: نَمْ، ويكفيك الليلة، وسأحكي لك قصةً جميلة غدًا.

*****

رُحْتُ في سُبات كما راحت جدتي في سُبات عميق أيضًا، ركبتُ حِصاني الخشبي، واتَّجهت إلى بيت المقدِس شاهرًا سيفي في وجوه الأعداء الصليبيّين، ودارت بيني وبينهم معركةٌ أطحتُ فيها رؤوسَهم جميعًا بسيفي، متذكِّرًا ما قالتْه لي جدتي عن شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، وعنترةَ العبسي قديمًا.

دخلت المسجد الأقصى بعدما ربطتُ حصاني الخشبي في رَدْهته، وصلَّيْتُ الفجر، واستيقظتُ من النوم مبكِّرًا كعادتي التي عودتني عليها جدتي، وجدتُ جدتي تَغِطُّ في نوم عميق، ممددةَ الأطراف تمامًا، حاولتُ إيقاظها، ولكن دون جدوى، ناديتها مرارًا وتكرارًا فلم تجبني، حزنت حزنًا شديدًا! قلت:

- إن ما صنعتُه يا جدتي هو الواجب، فلا بد أن نحمي مقدساتنا، ألم تعلِّميني ذلك؟!

اتصلتُ بأبي قائلاً:

- أبي، إن جدتي لا تكلِّمني، ولم تستيقظ بعدُ!

نظر عماد في ساعته، فهي تشيرُ إلى السابعة والنصف صباحًا، قائلاً:

- كيف لم تستيقظ أمي بعدُ؟

دخل متسائلاً:

- أمي، خالد، أين جدَّتُك؟!
- ربما كانت جدتي بالأمس في المسجد الأقصى...
- المسجد الأقصى! كيف؟! و... !
- لأنني كنتُ هناك، وقتلتُ كلَّ من كان هناك.
- خالد، خالد، منذ متى نامَتْ جدتُك؟!
- عندما نمتُ، وذهبت إلى الأقصى.

*****

بكى عماد بعدما قلَّب أمَّه يمينًا ويسارًا، عندها أدرك خالدٌ بأن جدته قد ماتت!

ظل خالدٌ يومًا وأسبوعًا وشهرًا لم يرَ جدَّته، ازداد حزنًا شديدًا، اعتزل الناس، حتى إخوانه وزملاءه في المدرسة، تساءل:

- أين أنت يا جدتي؟ اشتقتُ إلى حضنك الدافئ، وقصصِك الجميلة الرائعة؟!

رآه زميله سعيد يومًا وهو منطوٍ يبكي في فناء المدرسة، قال له:

- لماذا تجلس بعيدًا عنا يا خالد؟ ولِمَ لا تشاركنا اللعب؟

فقص عليه القصة، كان سعيد يأكل (ساندوتش)، فقسمه إلى نصفين، أعطى خالدًا نصفَه، وواساه، قائلاً له:

- يا خالد، هذه هي سُنة الحياة؛ خلقنا الله لنعبدَه سبحانه، ونعمّر الكون، وإذا طلبَنا فإننا نلبّيه سبحانه، يا خالد، ألا تعلم أن جدتَك الآن في الجنة وهي تتنعَّم في الفردوس؛ فقد كانت تحفظُ القرآن، وتصلّي الفجروجميع الصلوات، وتزكّي من أموالها، وكلُّ الناس يحبونها؟!

- حقًّا يا سعيد جدتي في الجنة؟!

- نعم، علينا أن نقرأ لروحها الفاتحةَ، ونترحَّم عليها؛ لتحبَّنا.

عندها تفتَّحت أساريرُ خالد، وسُرَّ بكلام صديقه، وفرح بأن جدته في الجنة مُنعَّمة، وأنها ستفرح حينما يُهدِيان لها الفاتحة والدعاء.

أخَذا في الجري والعَدْوِ في فناء المدرسة، وأكلا، وشربا.. هيهات فقد دقَّ جرس نهاية الفسحة..

اتَّجها إلى مقعدَيهما في الصف، دخل مدرس اللغة العربية قائلاً:

- السلام عليكم يا أبناء.

والتفَتَ إلى السبورة وكتب عليها موضوع درس اليوم: (تعبير تحريري حر).

- أيها التلاميذ، على كلِّ تلميذ أن يكتب موضوعًا تعبيريًّا، وله الحرية في اختيار الموضوع الذي سيكتبُ فيه، ولسوف نستمِعُ لما كتبتموه نهاية الحصة.

جاء دور خالد في قراءة موضوعه، فقام وقرأ:

- إن الموضوع الذي كتبت عنه تحت عنوان: (رسالة إلى جدتي).

وصف جدَّتَه، وعدَّد أفضالها الطيبة، وكيف كانت تحبُّه؟ وتَروي له قصصًا وحكايات جميلة من السيرة النبوية، وبطولات وغيرَها، وذكر بأنها في الجنة، وأنه مشتاقٌ لرؤيتها!

التف التلاميذ حولَه يسمعون له بإمعان، وينظرُبعضُهم إلى بعض، كما كان المعلم مُطرِقًا رأسَه، وقد دمعت عيناه، تذكر أمَّه التي توفِّيت منذ عام!

لقد بدأ خالد الموضوع بمقدمة استهلالية رائعة، ثم تناول الموضوع بتسلسل جيد، وأنهاه بنهاية رائعة، ختمه بقول الله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإسراء: ٢٣

عندها صفَّق المعلم وجميعُ التلاميذ، ولم يتوقفوا عن التصفيق إلا مع قرع جرس نهاية اليوم الدراسي .. !

الوِشاحُ الأسود
The black scarf

إذا جَارَيْتَ في خُلُقٍ دَنِيئًـــا ... فأنتَ ومنْ تجارِيهِ ســـــواءُ
رأيتُ الحرَّ يجتنبُ المخـــازِي ... ويَحْمِيهِ عنِ الغَدْرِ الوَفـــاءُ
يَعِيش المَرْءُ ما استحيَا بِخَيرٍ ... ويبقى العُودُ ما بقِيَ اللحـــاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيـــرٌ ... ولا الدُّنيا إذا ذَهبَ الحَيـــاءُ
إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالـــي ... ولمْ تستَحْيِ فافعَلْ ما تَشـاءُ

أبو تمام

الوشاح الأسود

(١)

أشارَ الرقم [٧] على لوحةِ الأرقَامِ، الساعةُ تُشيرُ الثامنةَ صَباحًا، دَاخِل المستشفى العام، دَلَفَتْ مِنْ البَابِ سَيِّدَةٌ - فِي عِقْدِهَا الثَّلاثِين - مُنْتَقِبَةٌ وَعَلى وَجْهِهَا غلالة سوداء شفافة، وفي يدها ورقةٌ مَكْتُوبٌ عليهَا رقم [٧] تابعتْهَا الخَادِمَةُ تَحْمِلُ صَغِيْرًا لَهَا، أشَارَتْ إليْهَا بالتَوَقُفِ، انتظَرَتْهَا بالخَارِجِ، أغلَقَتْ الممرضَةُ البَابَ .

نهضَ طبيبُ العُيون، نظرَ إليْهَا اهتزَ قَلْبُهُ تَفَرَسَ عَيْنَيها.

.مَرحَبًا .. تفضَلي عَلى هَذا الكُرسِي .

جلستْ مُنتصبةً بَعدَمَا وضعتْ حَقِيبَتَهَا الخَاصَة عَلى المَكْتَبِ المُقَابِلِ، أضاءَ الطَبيبُ لوحةً بيضَاءَ لقياسِ النَظَرِ.

.لو سمحتِ سيدتي .. هل يمكن رفع الوشاح وخلع النقاب ؟!

.لا يمكن ذلك ..

.إذًا كيف نقيس النظر، سيدتي .. هذا إجراء لابد منه للتأكد من قياس النظر صحيحًا .

صمتْ، نهضتْ واقفة، وقالتْ : لابد من خلع النقاب ؟

.نعم سيدتي، وإلا كيف نفحص النظر جيدًا .

صمتَ الطبيبُ وتلعثمَ ...

.سيدتي .. هل من الممكن وضع إحدى يديك على العين اليسرى، وتفتحين العين اليمنى .

.سيدى .. أرجو أن تعافيني من قياس النظر...

.لماذا سيدتي، فنحن وصلنا إلى نهاية الطريق .

.أي طريق ....؟!

.طريق قياس النظر.

ابتعد واقترب إلى الشاشة، حروف تظهر كبيرة، ثم صغيرة، فأصغر .. يسأل وتجيب بصوتٍ خافتٍ .

.صوتكِ سيدتي ..

.ألم تسمعْ يا دكتور ..؟!

يبتسم .. أريدُ أن أتأكد .. ينقطعُ التيارُ الكهربائي .

.ما اسم الحرف الآن ... ؟

.لا يوجد حروف ... فَالشَاشَةُ سَوْدَاءُ ..!!

(٢)

تخرج من الحجرة يتدافع الواقفون خلف الباب يزمجرون الساعة تشير إلى العاشرة وعشر دقائق، يجلس الطبيب واضعًا رأسه بين كفيه، تتعارك الممرضة مع المراجعين، تخرج السيدة بصعوبة وقد نسيتْ حقيبتها الخاصة والوشاح والنقاب، تبحث عنها الخادمةُ في كل مكان .. تتأملها .. تعرفها السيدة، تربت على ولدها، يصرخ .. ماما .

.أنا ..أمك يا فهد ... مالكَ؟!

.يتفرس فيها ..!

.ماما .. إيش فيكِ ؟! ..... sorry mama .... مني عارفكْ .

(٣)

وصلتْ البيتَ يتأملها كُلُّ الواقفين متسائلين .. عمال .. خدم .. أطفال

.مَنْ .. مَنْ ؟!

ينظر كلٌ إلى الآخر.. يدفن نظراته في عبهِ صامتًا .

في حجرتها تلمح سيدةً غريبة في المرآة .. تصفع خدها بكفها الأيمن، قائلة : أين النقاب والوشاح ... ؟!! أحستْ بدوارٍ .. وبشيء أفقدها عذريتها !!!

(٤)

اليوم، الميعاد الثاني، انتظرها الطبيبُ على شغفٍ، نظرَ لقائمةِ الأسماءِ، رقمها [٨] وضع بجواره بجرة قلم [٦] فصار الرقم [٦٨] دون أن يدري !.

جلست أمام غرفة الطبيب تتابع الأرقام على الشاشة العلوية، ترتدي نقابًا وتتوشح بوشاحٍ أسود شفاف، قرأتْ الشاشة [٨] نهضت تمد ورقتها، تعتذر الممرضة وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا مبتسمة قائلة : ليس رقمك سيدتي ..!

تضغط على أنيابها، تزمجر في نفسها بصمت مطبق، تتراجع وتجلس .. يحتك فخذاها ألمًا، تضربُ الأرضَ بقدميها، يصرخ ولدها، تتلفت بؤبؤتا عيني الخادمة خوفًا ووجلًا ..!

استلتْ من مخبئها تليفونًا محمولًا ككف اليد أو أكبر، ضَرَبْت بإصبعها على الشاشة تابعتْ الصُورَ تبتسمُ عندما رأتْ ولدها عند الميلاد يضحك، يصرخُ داخلها نداء الانتظار، نفسها تتحدثُ: زوجي لا تقلق فإني في أمان . تنتقل إلى الألعاب تُسلي ولدها، يُؤذن الظهر تشيرُ الساعةُ الثانية عشرة ظهرًا، تنادي الشاشة الرقم [٦٨] تفتح الممرضة البابَ، لم يوجدْ أحدٌ سوى الطبيب، الكلُ ذهبَ ليصلي الظهرَ جماعةً

(٥)

دخلتْ حجرةَ الطبيبِ تنظرُ مِنْ تحتَ الوشاح بنظراتٍ تقدح شررًا، يجلس الطبيب لم يحرك ساكنًا، طلبتْ راجيةً منه الاستعجال .

.لِمَ تستعجلي سيدتي، فالوقتُ طويلٌ .. والمكان أمان ؟!

.أرجوكَ أيَّهَا الطبيبُ لو سمحتَ ... please if allowed

نهضَ الطبيبُ واقفًا .. طلب منها أن تجلس، وترفع الوشاحَ وتخلع النقابَ، أضاء لوحة الأرقام .. أشار...

.ما كل هذه الأرقام ..

.لم أرَ شيئًا ..!

.إذًا لابد من فحص النظر تحت المِجهر.

.لو سمحتِ اجلسي على هذا الكرسي .. ضعي ذقنكِ هنا ؟!

دس عينيه في العدسة يطلق شُعاعًا يتفحص عينيها .. يراقب بؤبؤها، الخطوط الحمراء، الخطوط الزرقاء، الشبكية، القزحية ... العصب البصري، يشمُ رائحةً عطرةً .

.سيدتي .. خيرًا إن شاء الله .

.ماذا رأيتَ أيَّهَا الطبيبُ ؟

.أشياء لا يُحمد عُقباها، علينا أن نتأكدَ ...

.كيف ... ؟!!

.عليكِ سيدتي أن تتمددي على هذا الكرسي .. لأفحص قدميكِ ؟

.يا دكتور .. ألستَ طبيبَ عيون ...؟!

.نعم ... ولكن ألا تعلمين إذا اشتكى عضو تداعتْ له سائرُ الأعضاء بـ.....؟

أليس كذلك ؟ .. ربما يكون هناك نقصٌ في فيتامين أو ... أو ... وبذلك نستطيع تحديد العلاج الناجح .

جلسَ الطبيبُ الفُرفصَاء ليتفحص قدميها بعدما خلع الحزاء .. انتظَرَتْهُ بُرْهَةً وهو ينظرُ ويتأملُ ويدقق النظرَ، كادَ أنْ يلتصقَ وجهُهُ بقدمِيهَا، فسحبَتْهَا وأطلقتها قذيفةً في وَجْهِهِ ؛ فَسَالَتْ عَيْنَاهُ دِمَاءً .. !!

الغلالة : حجاب صغير شفّاف تضعه النساءُ على قبّعتهنّ وقد يغطّي كلّ الوجه أو قسمًا منه .

السُّلَمُ الخشبي
Wooden ladder

الخيرُ يَبقَى وإنْ طالتْ غوائِلُــه فِي نُصْــرَةِ الفَرْدِ إحْيَاءٌ لِأَكْوَانِ
فَافزَعْ إلى الخَيْرِ لا تَخْشَ عَواقِبَهُ مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَمْ يُرْمَ بِعُدْوَانِ

نبيل شتا

السُّلَمُ الخَشَبِي

نظر إلى الأرض فدارت عيناه .. أدركتُ بأنه قد توقف لا هو يستطيع أن يصعد أو أن يهبط، لا محالة سيسقط ويموت فاهتز قلبه بين ضلوعه خوفًا ووجلًا، كما ارتجفت قدماه، كان طفلاً في عقده الأوسط، رأيته يصعد السلم الخشبي سريعًا مهمومًا مضطربًا خائفًا، رأيته في اللحظات الأولى ماذا يفعل، فتسمرت عيناي عليه أرصد تحركاته بكل دقة وإمعان، كنت على عجل من أمري، أنتظر الباص القادم ليقلني إلى عملي، فالساعة تشير في يدي التاسعة إلا الربع صباحًا، وكان ميعادي الساعة الثامنة.

هالني تأرجح السلم الذي ركب عليه هذا الطفل يُمنة ويُسرة، فقد كادت قدماه المدببتان تنزلقان ويسقط على الأرض، فتهشم رأسه، كان جسمي وقتذاك يميل يمينًا ويسارًا مع ميل السلم الخشبي، أخذتُ أفكرُ ماذا جرى لهذا الهر ليتسلق هذا السلم هربًا، فجأة .. توقف على السلمة الوسط، وزاغت عيناه، كاد أن يلتصق بعمودي السلم.

قَدِم الباص، ثم توقف، فأطلق صفارة، وتابع سيره، كانت عيناي منغرستان في هذا الطفل تتابع رجفات قدميه وتحركاته وتحركات السلم، فنظرتُ إلى الباص وقد غاب عن ناظري، وسقطتْ عيناي على ساعة يدي، إنها تشير إلى العاشرة إلا الربع .. يا إلهي لكم أنا نزق..![1] لا أهتم بالمواعيد .

وطار نظري حيث الهر جاثم على السلم بالوسط، فترجلتُ إليه، وأمسكتُ رجل السلم لأثبته كي اساعده على الاستقرار، وأخذتني الشفقة عليه، فقلت له :

ماذا بك .. ؟!

فبكى والدموع كانت تتساقط من عينيه، قائلاً:

عمو.. انقذني .. !!

. كيف وأنت وسط السُّلم ؟ اصعد، وسوف أمسك لك السُّلم جيدًا ..!

. لا أستطيع .

. إذن .. انزلْ .

. لا أستطيع .

فما كان مني إلا أن ألقيتُ حقيبتي، وصعدتُ درجات السلم الأولى ثم الثانية فانزلقتْ قدمي اليمنى وعدلتها، فانزلقتْ قدمي اليسرى .. وأصبحتْ تُؤلمني ألمًا شديدًا، وكان السلم يتأرجح، خفتُ على الطفل من السقوط وعلى نفسي بالطبع، نزلتُ .. متسائلاً :

. ماذا أصنع لهذا الجني الذي صعد كل هذه الدرجات، فإنها تزيد عن عشر سلمات، فإنني رجل كبير لم أراهن بعمري من أجله، لابد إنه اقترف ذنبًا، جعله يهرب بهذه الطريقة، يسقط .. يقع .. يموت .. فما ذنبي إذن .. حملتُ حقيبتي بعدما نفضتُ ملابسي مما علق بها من أتربة، ورجعتُ القهقري .. صرخ الولد باكيًا مستغيثًا:

. عمو.. لا تتركني ..

تسمرتْ قدماي كما تسمرت عيناي من قبل عليه .. رفعتُ رأسي إلى السماء .. وقلت له:

. لماذا صعدت يا هر..

رد قائلاً :

لأن أمي ستضربني .. !

. لابد إنك فعلت شيئًا أغضبها.

. لا بل هي ...

. كيف .. ؟!

. طلبت منها طعامًا، فإنني جائعٌ فلم تطعمني !

.معي سندوتش، انزل وخذه.

حاول النزول سلمة .. سلمتين .. وتنزلق إحدى قدميه وتعلق الأخرى، فيتأرجح السلم، وانقلب فصارتْ رجلاه للأعلى معلقة ورأسه إلى الأسفل .

سرتْ حينئذ رعشة في جسمي؛ فصرختُ بأعلى صوتي مستغيثًا مشفقًا على نهاية هذا الطفل المسكين .. فما كان مني إلا أن أمسكتُ السلمَ، ووقفتُ دون أن اتحرك، مَرَّعليَّ رجلٌ طاعنٌ في السن يتكئ على عصا غليظة، طلبتُ مستنجدًا به وأشرتُ إليه، فما كان منه إلا أن رفع حاجبيه المغضنتين[٢] إلى الطفل، ودحرجَ نظرة إليَّ وتبسمَ وسارَ دون توقفٍ ..

مَرَّعليَّ صبية صغار فرأوا ما أنا فيه، والطفل المعلق؛ فضحكوا .. وهللوا .. وصرتُ أبكي في نفسي خوفًا على الطفل، وألمًا من تصميد[٣] يدي، وضياع عملي ..

كلمتُ الطفل، فلم يردْ عليّ جوابًا ..

قلتُ لافائدة من مواصلة الوقوف وإمساك السلم، فقد توفي الولدُ لا محالة ..

مَرَّتْ سيارة كان صوتُها عَاليًا، فالتفتُ إليها، فجأة وسقط السلم على الأرضِ ، ووقفَ الولدُ يسألني :

.أين السندوتش يا عمو .. ؟!

وقفتُ مبهوتاً [٤]، فقد دارت رأسي وزاغ [٥] بصري، وتمادتْ الأرضُ من تحت قدمي،.. لا أدري ما أنا فيه، أطفال يضحكون، ويهللون .. ورجال ونساء من حولي يقتظ بهم المكان، وسيارة مفتوحة الأبواب الأربعة .. تُقفلُ، وتفرُ مسرعةً .. !

هرولتْ بحثًا عن حقيبتي لأحضر السندوتش، درتُ في كل مكان .. لم أجدْ حقيبتي، ولا السندوتش .. ! رجعتُ القهقري، وجلستُ القُرفصاء، مُمْسكًا بذقني .. وعيناي مُثبتتان إلى الأرض .. وعقلي شاردٌ

أفكرُ في الباص الذي تركني، وعملي الذي ضاع، والسندوتش .. فإني جائعٌ الآن .. !!

(١). النَّزَقُ : الخِفَّةُ والطيش في كلِّ أمر.
(٢). المغضنتين :أي المُجَعّدتين ، والمفرد:: مُغَضَّنٌ ، وهو المُجَعَّد .
(٣). تصميد : دائم
(٤). مبهوتًا : فتح العين وتحديد النظر، كأنه مَبْهوتٌ .
(٥). وزاغ : بمعنى الميل .

طرْدُ الذُّبابِ الكاسِر
Expel breakage flies

يا لَها مِنْ ذُبابةٍ سَئيلةٍ لا فكاكَ منها إلا بالموت!
فرفقاً بنا معاشرَ الذُّبابِ، تكونَنْ أكثرَ لطفًا وتَوَدُّدًا.

طردُ الذبابِ الكاسرِ

(١)

دفع باب المقهى في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ودخل وجلس وَلَفَّ ساقه الأيمن فوقَ ساقهِ الأيسر، بعدما أسند ظهره إلى الكرسي تمامًا، منتظرًا قدوم الشيشة ، فهو ينشد الراحة بعد تعب منذ الصباح الباكر، ومما يعتريه من منغصات ومكابدات ليس في العمل فقط، وإنما في الشارع والبيت، فولده لا يذاكر إلا بالمتابعة والضرب، فلا يصحو من النوم إلا متأخرًا متكاسلاً، يذهب إلى المدرسة بعد الحصة الأولى يوميًا، زوجته لا ترحمه فهي النكد بعينه .

جاءته الشيشة واستقبلها بحفاوة بالغة، وأخذ يشفط منها دخانًا كثيفًا، ثم ينشره في الهواء، عَبِقَ المكانُ بدخان الشيشة، واقتظ المقهى برواده، وقد أوصى على شاي سكره زيادة، جاءه العامل يحمل كوبًا كبيرًا مليئًا بالشاي الأحمر، وضعه أمام السيد شعبان، وقال له :

.تفضل يا سعادة البيه .

تبسم أوكاد يزيح الهموم التي جثمت على صدره ولخبطت غزله، رد بِهَزِرأسه وتحريك قَدَمِه المرفوعة .

(٢)

بينما السيد شعبان كان منغمسًا فيما هو فيه من الأحزان الطاغية وهمومه القاتلة، حامت حوله ذبابة نظر إليها، تابع تحركاتها الدائرية والعمودية، والهلوانية، قال في نفسه : هل تحزن هذه الذبابة ويصيبها الهموم مثلما نصاب نحن البشر؟! كان سعيدًا بادئ الأمر بها،

وهي ترف وتحوم فوق رأسه تارة، وفوق الطاولة التي أمامه تارة أخرى، تختفي وتظهر في لمح البصر.

كان يرتشف رشفة من الشاي الأحمر، ويمتص نفسًا من الدخان، يرفع الكوب وينزله على الطاولة غير عابئ [1] بما حوله حتى الذبابة التي سَرَّتْهُ، فمازالت في حركاتها البهلوانية فوق الطاولة، تارة تلف وتدور، وتارة أخرى تنزل على الطاولة متخذة لها مدارج خاصة ومتعددة وفي كل الاتجاهات .. رويدًا رويدًا هبطت على مدرج كوب الشاي، عندها انزعج ونسي كلَّ همومه وأحزانه، وأصبحتْ الذبابة هي الشغل الشاغل له .

حاول مرارًا دون جدوى أن يثنيها عن غيها ونزولها على مدرج كوب الشاي الأحمر؛ لتمتص منه رحيقًا، ذلك الذي تركه على حافة الطاولة بعد رشفته مباشرة .

تحرك، تململ، خبط على الطاولة . . على الأرض، أبت الذبابة أن تتركه لحاله، أمسك كوب الشاي الأحمر في يد، ومبسم الشيشة في يده الأخرى، وترك الطاولة ومدارجها للذبابة تتحرك عليها كيفما تشاء .

طارت وحامت فوق الطاولة كطائرة نفاثة حطت على مدرج كوب الشاي الأحمر وهو في يده، وقفت تمتص مطمئنة فلا يقوى على هشها، نفخها بفيه لعلها تطير وتترك ذلك المدرج، وإذ برذاذ من الشاي الأحمر القاني يتطاير في الهواء، وعلى قميصه، لاحظ أحدُ الجالسين تلك المعركة الحامية، والمراوغة الداهية بين كل من الذبابة والسيد شعبان، غمز لصديق كان بالقرب منه، وحوّل الناس كل الناس في المقهى أنظارهم التي كانت منغرسة في الشاشة العلوية ومتابعة ما كان يدور عليها من أحداث وصراع بين مصارعين على حلبة المصارعة الدولية .

(٣)

اشتاط السيد شعبان غضبًا ونزقًا، قام وفي يده كوب الشاي الأحمر ومبسم الشيشة، والممتد منه خرطوم طويل متصل بالقارورة الزجاجية، التي تُصدرُ صوت الكركرة كلما أخذ منها نفسًا، لينفثه في الهواء، دخانًا كثيفًا ممتد الأرجاء .. لاحظ وأحس بالعيون المشرعة نحوه، فكلما نظر إليها زاغت نحو الشاشة العلوية .

تجاهل تلك النظرات، وجلس غير مكترس بما سوف يحدث مع تلك الذبابة الملعونة التي جاءته على حين غِرة، هشها مرارًا، أبت أن تترك تلك الوليمة، فما كان منه إلا أن سكب بعضًا من الشاي على الطاولة لعلها ترتدع عن غيها وتقنع بها وتترك الكوب، إلا إنَّهَا أبتْ أن تتذوق وتشرب إلا من ذلك الكوب الذي يحتضنه بيده ومن حافته بالتحديد .

نادى السيد شعبان عامل المقهى، قائلاً له :

.هات واحد شاي سكره قليل .

أحضره على عجل وقدمه له بلهجته المعهودة طمعًا في البقشيش، استغرب إنه لم ينته من شرب الشاي الذي في يده، قائلاً :

.تفضل يا سعادة البيه .

شكره، وقال :

.ضعه هنا على حافة الطاولة، وأشار إلى ركن نائي . وحدث نفسه قائلاً:

.لعلها تقف عليه تتخذه مدرجًا، تشرب منه، تنزل فيه لتستحم، المهم أن تبتعد عني .

لَفّتْ، صعدت، هبطت في دوائر معهودة .. ظل متابعًا لها ببصره، والناس كل الناس، تتابعه وتراقب جيدًا ماذا سيحدث .. ؟ وهم يكتمون أنفاسهم وضحكات تكاد أن تنفجر كالهواء داخل بلونة بلاستيكية رقيقة أحكمت فوهتها برباطٍ شديدٍ.

غابت .. فارتاح .. وَثَبُتَ في جلسته .. لحظة وقد لَفّتْ ودارتْ فوق

رأسه في لمح البصر، ظل يضرب الهواء ذات اليمين وذات الشمال؛ لعلها تهمد، فكر أن يخلع نعليه ويطير وراءها يتعقبها يصارعها؛ ليقتلها ويقضي عليها، أو أن يمسكها ويُقَطّعُ جناحيها ويعذبها تعذيبًا شديدًا جزاءً لها ولأفعالها، أو أن يفعصها تحت نعاله الجديدة .

انتشرت بقعة من الضوء الممتد على الطاولة فتابع خط الضوء الآتي من شعاع الشمس والمنبعث من نقطة في الجدار.. فظهرت وأتته على عجل وهبطت على مدرج كوب الشاي الأحمر، الذي كان يحتضنه بيده، وقد عفت الكوب الموضوع في نهاية الطاولة . تنحنح، تململ السيد شعبان مرارًا، فتفل في وجهها، الناس يَضّجعون من الضحك .. وقد لووا أعناقهم جميعًا تجاه تلك المصارعة الحامية، ونسوا وتناسوا مصارعة الشاشة، وأولوها ظهورهم تمامًا .

رَنَّ هاتفه المحمول، حمله، تكلم، فهو يعرف مَنْ المتصل تمامًا، قال :

. حاضر.. حاضر.. حاضر.. ريا ستي، الدنيا مش طارت ولا حطت، مش وكلين النهارده .

لقد طلبتْ منه أن يأتي بأنبوبة بوتاجاز ملئ على عجل، فهي تطبخ، فحتما سيخرب الطعام، خاصة الأرز فإنه لم ينضج بعد .

الذبابة تطير وتحوم، أبطال مصارعة الشاشة يتصارعون، دوي السيارات في الشارع يتصاعد، طائرة نفاثة تخترق الغيوم، الأشجار تتحرك، الرِّياح تَئِزُّ[٢] وتعصف، العيون مشرعة .. إنَّهَا شريحة عرضية من يوم الحياة .

(٤)

نظر إلى الذبابة وقد بلغ منه الغيظ منتهاه، تابعها بعينيه، هشها بيديه .. اصطدمت يده بجسمها، فَكُسر جناح من جناحيها؛ فَمَالَتْ مُنْحَنِيةً فِي طَيَرَانِهَا .. أُعْجِبَ بِهَذَا المَنْظَرِ الَّذِي لَا يَصْنَعُهُ إلَّا طَيارٌ مُحْتَرِفٌ

ماهر، فهي تطير على جنبها مشرعة جناحًا إلى أعلى، كأنَّهُ شراعُ سفينةٍ تمخرُ عبابَ البحرِ الهائج المتلاطم الأمواج .. ذهبت بعيداً حيث نقطة الضوء التي يشع منها الشعاع الراسم بقعة من الضوء على الطاولة، وتحركت بعيدًا بعيدًا عنه .. وعادت في توها بنفس طريقة الطيران مجنحة ومشرعة شراعها.

جحظت عيناه، وأمسك ذقنه متعجبًا من هذا العناد، وذاك الصراع المرير الذي تغلغل في نفس هذه الذبابة اللعينة .. أيقن في نفسه بأن الذباب يعيش في مشاكل وهموم وصراع وتطاحن مثله تمامًا، وككل البشر..

وقف وترك الكوب والمبسم، وتابعها ومشى على أهداب عينيه، يراقبها، فإذ بها تقترب مجددًا إلى الكوب ومدرجه المعهود، فما كان منه إلا أن فرد كفه الأيمن كالمطرقة وضربها ضربة كرة المضرب تمامًا؛ فسقطت في الكوب محققًا هدفًا رائعًا، تبسم، فرح، صَفَّقَ له كل الحضور، جلس يلهث بعد المعركة .. رفع قبضته واقفًا يلّوح بها في الهواء، ضاغطًا على أسنانه، برقت عيناه .. لأول مرة استشعر فيها حلاوة الانتصار والفوز الكاسح منذ عشرين عامًا من زواجه .

(٥)

طلب السيد شعبان كوبًا من الشاي وحجرًا جديدًا للشيشة؛ حتى ينعم بلذة الفوز، مدد رجليه ولبس نظارته ورفعها فوق عينيه، وأخذ يرشف من كوب الشاي الجديد ويمتص من دخان الشيشة وينفثه في الهواء محدثًا جلبة دخانية كثيفة عبّقت المكان كله، كان يتأمل الخصم المقتول، داخل كوب الشاي الأحمر القاني، وها هي جثة هامدة تطفو وتلف وتدور فوق صفحة بركة الشاي الأحمر، شرد بفكره بعيدًا يفكر في زوجته والشارع والأولاد .. ينظر مثبتًا عينيه على الشاشة العلوية دون أن يرى شيئًا .

فجأة .. وقد رأى الذبابة المهزومة المقتولة تقف على مدرج الكوب، تتمايل كأنَّمَا تريد أن تتخلص مما علق بها وما لحق بها في المعركة، تريد أن تنهضَ .. فاهتز السيد شعبان، وجحظتْ عيناه، وبلع ريقه، ومد عنقه مَدًا كادتْ عيناه تسقطان داخل الكوب .. تراجع للخلف رويدًا رويدًا، وقد حَدَّقَ [٣] النَّظَرَ فِيها.. متسائلاً:

.هل مازالتْ .. على قيد الحياة ؟!!

لابد أنَّهَا ستنكفئ على وجهها وتسقط مجددًا.

وبينما هو كذلك، وإذ بها تطير فيتابعها واقفًا، حتى غابتْ عن عينيه .. جلس وعاد إلى ما كان عليه، حاول أن ينسى كُلَّ ما حدث، مدركًا بأنَّهَا ذهبت إلى حال سبيلها، فلا داعي تذكر الماضي .. بينما هو في غمرة النسيان، عادتْ مجددًا، تشق الهواء شقًا، بجناح مشرعٍ إلى أعلى، وأسراب من حاشيتها كجيوش جرارة خلفها تحمل أسلحة لا قِبَل له بها. تنحى الجالسون في أركان المقهى لتلك الجيوش الجرارة، والتي جاءتْ من كل حدبٍ وصوب، تتابعت أسراب الذباب واحتشدتْ ، وحطتْ عليه، مُشَكِّلَةً جسمه .. طردًا من الذباب الكاسر .. !!

---

(١)غَيْرُ عَابِئٍ بِشَيْءٍ : غَيْرُ مُكْتَرِثٍ ، غَيْرُ مُهْتَمٍّ .
{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ }
(٢) تئز: من أَزِيز الرِّيح : أي صَفِيرُهُ . ومصدره أَزَّ.
وأَزِيزُ الرَّعْدِ أي : صَوْتُ الرَّعْدِ .
وأَزِيزُ الحَشَرَاتِ أي : طَنِينُهَا .
وأَزِيزُ مُحَرِّكِ السَّيَّارَةِ أي : اِهْتِزَازُهُ وَصَوْتُهُ .
(٣) حَدَقَ النَّظَرَ فِيها : أَمْعَنَ ، حَدَّدَ النَّظَرَ إِلَيْها.

رجل الكرامـــات
A man of dignity

فَقُلْتُ خَلُّوا طَريقي لا أبا لَكُـمُ فكلُّ ما قَـدَّرَ الرَّحْمنُ مَفْعولُ
كلُّ ابنِ أُنْثى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ يوماً على آلَةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ

كعب بن زهير

رجل الكرامات

كان يسمع كثيراً بأن هناك من يصحو بعد موتهِ، فجلس بين أبنائه وخاطبهم قائلاً: لقد تقدم بي العمرُكما ترونَ، فقدْ بلغتُ السبعينَ وها هو جسمي أضمر، وسمعي خَفَّ، وبصري تلاشى، وإنني على مشارفِ الموتِ وحافةِ القبرِ، فإذا مِتُّ فاتركوني يوماً أو يومين فربما أصحو أفضل إنْ صحوتَ في القبرِ!

كتم الأبناءُ الثلاثةُ ضحكةً كادتْ تنفجرُ من أفواههم جميعاً، فقالوا معاً : لا عليك يا أبي مِتْ كما تريد فنحنُ لن نتعجل دفنك؛ فضحكَ الأبُ، وقال : أتظنون بأني أمزح معكم، ألم تسمعوا بأنَّ فلاناً ماتَ وصحا عند غُسله، وأنَّ فلاناً مات ودفن وأخرجوه من قبره حياً، وأنَّ فلاناً ماتَ ودفنوه وصحا وماتَ في قبره ...

قالوا : سمعنا ... ولكن يا أبانا أنتَ بخيرٍوبصحةٍ جيدةٍ، وندعو الله جميعاً أن يطيلَ في عمركَ ...

انصرفوا جميعاً، وفكرَ العجوزُ قائلاً : إنَّهَا حِيلة جَيدة سوفَ أتخذها حتى يتبينَ لي مَن يحبني بصدقٍ، ومَن يتمنى موتي ويتعجلني ليرثني، وأراد أن ينامَ فمَدَّ جَسَدَهُ مَدّاً وأخذه التفكيرُ كيفَ يكونُ ميتاً؟ وأخذ يشد جسمه شداً ويلف ساقاً بساقٍ، ويُشخصُ بصره نحوَ السَّماءِ، ويكتم أنفاسَهُ ... فيجد كتمَ أنفاسهِ صَعباً، ولكن لابد من التدريب ... بدأ يجربُ ويجربُ .. حتى خُيل إليه بأنَّهُ مَاتَ حَقاً، فَانتَفَضَ وَاقفاً مَذعُوراً وَكَأنَّمَا مَسَّهُ مَلِكُ الموتِ، لقد دارتْ به أركانُ الحجرةِ، خَفَّ جِسْمُهُ، وَعُدِمَ وَزْنُهُ، خُيل إليه بأنه داخل نعشٍ مقفولٍ يتحركُ الناسُ بهِ يميناً ويساراً متجهاً به إلى بابِ القبرِ.

جاءَ الأولادُ الثلاثةُ فوجَدوهُ شَاحبَ الوجهِ، شَاردَ الذهنِ، لا يأكلُ

ولا يشربُ، ملامحَهُ قَدْ تغيرتْ: فَسُرَولدان وبكى الثالث، قالوا :

- يا أبانا إنا لنراكَ ساهمَ الطرفِ شَاردَ الفكرِ لا تأكلَ ولا تشربَ، فماذا حَلَّ بِكَ ؟!

- لا عليكم فإنني بخيرٍ والحمدُ للهِ.....

كانَ العجوزُ يفكرُ في أموالهِ وثروتهِ لِمَنْ يعطيها، وتساءَلَ : هل أتركها ليتقاسمها أبنائي، رغم اختلاف برهم بي .... هذا يضحك عليّ، وهذا يسايرني غيرراضٍ، وهذا أراه حزيناً باكياً ويسمع قولي ....

جاءَ اليومُ الموعودُ في تمامِ السَّاعةِ العاشرة صَباحاً مات الأب باتفاق بينه وبين طبيب القرية الوحيد الذي زاره وهو مريض، فأبصره الأبناء، وقالوا لقد ماتَ أبونا ...

- قال أكبرهم : علينا أن نتعجل بغسله وتكفينه ونصلي عليه في مسجد المقابر....

- قال الأصغر: علينا أن نتعجل ...

- أما الثالث فقال : لا عليكما، أنسيتم وصية أبيكم، بألا نتعجل بدفنه، فلربما يصحو ..... نظر الكبير والأصغر لبعضهما، وكأنما وجدا جداراً يفصلُ بينهما وبين حلمهما .

- قال أحدهما : سوف نتحقق من ذلك، ونرسل للطبيب، فحص أباهم وسحب الغطاء على وجهه ونظر إليهم قائلاً : البقية في حياتكم ...

انتحب الأولاد جميعاً، وكأنَّمَا نزلتْ بهم صاعقةٌ .

قال الأوسط : علينا أن ننتظر العصر.

قال كبيرهم : سوف تعفن الجثة، لقد ماتَ أبوكم الظهر.

قال أصغرهم : العصر... بعيد، سأذهب لاحضار المُغسل، وأزيع في أهل القرية بأن أبانا توفاه الله، والعزاء ليلاً ...

قال الأوسط : يا أخي ... أنسيتَ وصيةَ أبيك .
قال الأكبر: أي وصيةٍ ... الكبارُ لا يُؤخَذُ لهم على كَلامٍ .
قال الأصغر: الطبيب ألمْ يقل إنَّهُ ماتَ ... !!

رضخا للأصغر .. فأحضرَ المُغسلَ .. وجرّدَ الأبَ من ثيابه، وقام بغُسله، وعندما أراد أن يشد الكفَنَ على رأسهِ، تبين له ما كان يفكر فيه كُلُ واحدٍ من الأبناءِ، قال : لا تغطي وجهي ...!!
ارتعب المُغسلُ وكاد أن يُغشى عليه وفرَّ هارباً، قابلوه عند الباب متسائلين : ما بكَ ... ؟!
قال : إنَّ أباكم صحا من موته ..!!
نظر الأولاد الثلاثة إلى بعضهم البعض، وهم في وَجلٍ ...
فقال الأوسط : ألم أقل لكما ربما ...
لمعت عينا الكبير بعيني الصغير وأحاطتْ بهما الظنون، وقالا : هل من المعقول أن يصحو الميت بعد موتهِ ؟ وكيف أخبرنا أبونا بأنّهُ ربما يصحو بعد موتهِ ؟!
صار الأولاد في حيرة من أمرهم، أبوهم يضحكُ عليهم ... يخادعهم ... ولكنهم نفوا ذلك بقولهم :
- إنَّ الطبيبَ لا يكذب !

دخل الأولاد مهللين ومكبرين على أبيهم ... فعجَّلهم بقوله : ماذا بكم ؟ وماذا تصنعون بي ؟!
نظروا لبعضهم البعض قائلين : لم نصنع بك شيئاً يا أبانا، ما نراك إلا بخيرٍ... سلخوهُ من كفنهِ وألبسوهُ ملابسه، وجلس معهم يأكلُ ويشربُ ... !
شاع في القريةِ والقرى المجاورة بأنّ فلاناً ماتَ بالأمسِ وصحا ... فأقبل الناسُ مهنئين مغتبطين يباركون عودة أبيهم إلى الحياة الدنيا،

منهم من يحمل الورود، ومنهم من يحمل الهدايا، ومنهم من يقول بأنّهُ رجلٌ مبروكٌ، ومنهم من يقول بأنّ لَهُ خصوصية عندَ رَبِهِ ..

أخذَ الناسُ يتقربون إليه ويتمسحون ويتبركون به، ويأتون أفواجاً، يتساءلون معه : كيف وجدتَ الآخرةَ ؟ هل كنتَ تعلمُ عن الأحياءِ شيئاً ؟ هل كنتَ تحسُ بنا وتسمعنا ؟!

اشتهرَ العجوزُ بالكراماتِ .. فتقربَ إليه كُلُ صَغيرٍ وكَبيرٍ رَجُلًا كانَ أو امرأةً، يلتمس كُلُ رجلٍ أسبابَ السعادةِ والرزقِ من العجوزِ، وتتلمس البناتُ منه الدعاءَ لهن بالزواج، وتلتمس النساءُ بأنْ يهدي أزواجهن، وصار العجوز شيخاً وقوراً مِن أهل الكراماتِ يَحُجُ إليهِ الناسُ مِنْ كُلِ مَكَانٍ .. !!

دوَّامـــةُ الريـــح
Vortex of the wind

«وإذا المَوْءُودةُ سُئِلَتْ بأي ذنب قُتِلَتْ».

{التكوير ٨،٩}

«لولا أن سبقت رحمة الله غضبه لعجل الله لك العذاب». قالها النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وأد ابنته في الجاهلية، وقال لآخر وأد بناته: «من لايرحم لايرحم، وإن لك يوماً سيئًا. فقال قيس بن عاصم: ماذا افعل لتكفير ذنبي؟ فقال النبي (ص): حرر من العبيد بعدد ما وأدت».

دَوَّامَةُ الرِّيحِ .. !!

توقفَ عقلي كَما تسمرتْ قَدمَامي وقتَ القَيلولةِ، بينما انطلقَ قَلبي يَعْدُو بخطواتٍ متباينةٍ يسابقُ الرِّيحَ، مَددتُ سَمْعَي لصوتٍ هَامسٍ ينبعثُ مِنْ تحتَ قدمَيّ، إنَّهُ صَوتٌ أنثوي .

تساءلتُ : يا إلهي .. هَلْ هَذا الصوتُ الذي أسمعَهُ حَقِيقِي .. أمْ إنَّهُ صَدَى لصَوتٍ آتٍ مِنْ هذه البيوتِ العَتِيقةِ، المُجَاورةُ للقُبُورِ؟!

عنَّفْتُ نَفْسَي مُتسائلاً : لماذا مَررتُ ليلاً من هُنا بينَ تلكَ القُبور؟ فقدْ حَذَّرَنِي النَّاسُ مِرَاراً بألا أعبرَ هذا الطريقَ المُمتدَ وسطَ الجبانةِ، خَاصَةً ليلاً أو وَقتَ القَيلُولةِ، فالطريقُ مسكونُةٌ، تكثرُ الأشباحُ في هذه الأوقاتِ .. فكلُ مَنْ مَرَّ مِنْ هُنَا شَاهَدَ أو سَمِعَ ما يَشِيبُ لَهُ الولدانُ .

- مَنْ أنتَ ..؟ ومَنْ جاءَ بِكَ هُنَا .. هَلْ أنتَ رجلٌ تَحمِي حَرِيمَكَ وَشَرَفَكَ ؟ .. وهَلْ للرجَالِ شَرَفٌ .. ؟!

- يَا إلهي .. إنَّهُ صَوتٌ حَقِيقِي، وربمَا هو الصَوتُ الأنثَوي الَّذِي كُنْتُ أسمَعَهُ، إنَّهُ صَوتٌ وَاهِنٌ بَاكٍ، ينبعث من تحت أطباق الثرى؛ فاقتَربتُ مِنْ مَصدَرِ الصَّوتِ متسائلاً :

- مَنْ المُتَكلِمُ .. أعَزْكِ اللهُ ..؟

تلاشتْ طبقاتُ الصَّوتِ حتى اختفتْ تَمَامَاً، وكَأنَّمَا لَمْ أسْمَعْ شَيئاً مِنْ قَبْلُ. فَجْأةً يُفْتَحُ بَابُ مَقْبَرةٍ عَتِيقٌ، وتَخْرُجُ مِنْهُ عَجُوزٌ شَمْطَاءَ تَزحَفُ بِيَدَيهَا وعَلى رُكْبَتَيهَا، ذات شَعرٍ أبيضَ أشعَثَ، وعينين سَوداوين مُغْضَنَتَين، كَأنَّهُمَا قِطْعَتَا فَحْمٍ فِي لَيلٍ حَالكَ السَّوادِ، كَأنَّهَا طِفْلَةٌ تَحْبُو عَلى أربَعٍ ...

ارتجفتْ أوصَالُي وَتَصَببَ عَرَقِي، وتَحَجَرَتْ كَلِمَاتِي فِي حُلقومِي، وَجَفَّ رِيقي .. تَسَاءَلَ عَقْلي :

- هَلْ هِي إنسِيّةٌ أمْ جِنْيّةٌ ؟!

- لِمَ تَخَافُ وترتجفُ؟ كَمْ كُنْتُ أتَوَقّعُ أنَّكُم بَنِي البَشَرِ مِنْ الرجالِ شُجْعَان .. أتَخَفْ مِنيّ يا ولد .. مِنْ عَجُوزٍ شَمْطَاء مِثلِي تَمْتَلِكُ خَمْسَةً وثمَانِينَ عَامًا؛ خَمسَةٌ فَوْقَ الأرْضِ، وثَمَانُونَ تَحْتَ الأرْضِ.. لَسْتُ عِفرِيتَةً ولا شَيطانَةً، إنَّمَا أنَا إنسَانةٌ .. !!

دَعْكَ مِنْ شَعْرِي الأبيضِ الأشْعَثِ الأغْبَرِ المُفْزِعِ كَمَا تَرَاهُ، دَعْكَ مِنْ هَذا الظَهْرَ الَّذِي احْدَوْدَبَ كَالعُرجُونِ القَدِيم، دَعْكَ مِنْ هَاتِيكَ الأرْبَعِ، فأنَا لَمْ أستخدم على الأرضِ إلا إيَّاهُم، ومَازِلتُ مَعْ كُلّ ذَلِكَ طِفْلَةً صَغِيرَةً لَمْ يَتَجَاوزْ عُمرِي خَمْسَ السَنَواتِ فَوْقَ الأرضِ، ولكنَّ الثَّمَانِينَ التِي تَرَاهَا عَياناً بَيَانَاً، لَمْ أرَ فِيهِنَ الشَّمْسَ وَلا النُّورَ .. كُلُ لَيلةٍ أُحَدّثُ نَفْسِي مِرَاراً يَا وَلَدِي ... بَأي ذَنبٍ قَتلونِي .. !!!

- كيفَ تَعِيشِينَ فِي هَذِه المَقْبَرةِ مُنْذُ الخَمسِ والثَّمَانينَ سَنةً ؟!

- قُلْ مُنْذُ ثَمانينَ عَامَاً ... عِشْتُ فِي وِحْدَةٍ، وَفِي شَرَفٍ...!

- شَرفُ ... ماذَا تَقْصُدِينَ؟!

- شَرَفٌ .. ألا تَعْلَم معنَى الشَّرفِ؟ ألسْتُ الآنَ فِي شَرَفٍ، لا تَقُلْ مُنْذُ الخَمْسِ والثمانينَ سَنةً، بَلْ قُلْ مُنْذُ الثَّمَانينَ سَنةً فَقَطْ، وأنَا فِي وَحْدَتِي شَرَفٌ .. غَسَّلُوا عَارهُمْ مُنْذُ ثمانينَ عَامَاً.. !

- أتَحْفَظُ السِّرَ... !

- نَعَمْ ....

- أهلي .. دَفَنُوني هَا هُنَا، كُنْتُ أمْتَلكُ خَمسَ سَنَواتٍ عِجافٍ، وَلَمْ يَنْتَظِرُوا النَّزعَ الأخِيرَ .. فَهُمْ كَانُوا دَائمَاً عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِم، مُتَسَرِعينَ فِي قَراراتِهِمْ حتَى فِي دَفْنِي .. فَلَمْ يُحْكِمُوا إغلاقَ بَابَ المَقْبَرَةِ؛ فَانْبَعَثَ ضَوءٌ خَافِتٌ دَاخِلَهَا، حِيْنَما قَفَلُوهُ عَلَيَّ وَقَفَلُوا إلى بُيوتِهِم مُطْمَئِنِينَ، وَنَفَّضُوا أيدِيَهُمْ مِنْ الْعَارِ..

- هل أذنبتُ في حقهم يا ولدي ..؟ ماذا صنعتُ لهم؟ ماذا اقترفتْ يداي الغَضَّة؟! .. هل قتلتهم حينما أطلقتني أمي من رحمها

في وجوههم، في منتصِف ليلةٍ شتويةٍ عَاهرة، يومَ أن جلسوا ينتظرون الطَّلقَ على أحرَ من الجمرِ؟! .. هَلْ كُنْتُ قذيفةً في وجوههم لم تُغتَفرْ؟ فبأي ذنبٍ قتلوني..؟ ألستُ موؤدةً سيسألهُمْ رَبُهُمْ عَنّي يومَ القيامةِ ؟!

- أسْألُكَ يَا بُنَيّ: هَلْ هُمْ فِي شَرَفٍ الآنَ؟خَبرني عَنْهُمْ، وَلِي أنْ أمْنَحَكَ الحَيَاةَ والشَّرَفَ ..؟!

- كيف تمنحينني الشَّرفَ، وأنا الشَّرفُ نَفْسُهُ ... ؟!

- نَعَمْ، إنَّكَ الشَّرَفُ نَفْسُهُ، نَسِيتُ يَا بُنَيّ، لا تُؤاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ، فَإنَّهُ زَهَايمرُ العُمْرِ

- ولكن جدتي .. هل يمكن أن أساعدكِ ؟

- فيما تساعدني ...؟

- أن تتركي هذا المكان وتأتي معي، إلى بلدتنا وبيتنا وإخوتي وأهلي: إنهم سوف يعتنونَ بِكِ .

- وهل أهلكَ يعيشون الآنَ ..؟ لقد قتلتهم زماناً .

- لا يا جدتي .. إنَّكِ طَيبَةٌ، وأريدُ أنْ أساعدكِ ..

- مساعدتُكَ لِي أنْ تُدْخِلَنِي قَبْرِي .. وتقفل عليَّ جيداً، حتى لا أراكم مرة ثانية .. كنتُ أبحث من زمنٍ عَمَنْ يُخلصني من الحياة حتى أستريحَ، وتصعدَ روحي إلى ربي ...

- جدتي .. وما ذنبكِ في كل ذلكَ ؟

- أنتَ قلتَ .. ما ذنبي ..؟ ذنبي إنني ...!!!

- وهل الأنثى ذنبٌ ...؟!

- اسألوا أنفسكم ..... ؟!

- أين أمُكَ التي أنجَبَتكَ، أينَ جَدَّتُكَ التي أنجَبت أُمُكَ، أينَ جدةُ جَدتكَ، أينَ جدتُهم حواءُ التي أخرجتْ جَدَّهُمُ مِنْ الجَنَّةِ .. أليسَتْ هِي الحَقِيقَةُ ؟

- لا .. ليستْ الحَقِيقَةَ ... ولماذا اتهموا الأنثى ؟!

- ألستُ ذنباً من يوم الخليقةِ ؟

أحسستُ بدوار في رأسي، شاهدتُ البرقَ يضربُ بعروقه كبد السماء، والرعدُ والبرق يقصفان كلَّ مكانٍ، والمطرينهمر بغزارةٍ ليسقي الأرض العطشى، نظرتُ حولي أبحث عن مكان أتدثر فيه، فإذ بدوامةٍ من الريح تقتلع جذوري أنظر تارةً إلى نفسي، وتارة إلى باب المقبرة، أتلصص على العجوزِ؛ فلم أجد لها أثراً، وكَأنَّ السماءَ خَطَفَتْهَا أو الأرضَ ابتلعتها .. يا إلهي ماذا يحدث .. هل أنا في علمٍ أم حُلم ..؟ قطعاً، إنَّهُ حُلم، لا إنهُ العِلم والحُلمُ مَعَاً .. كم هي الحياة تجمع بين النقيضين، بين العلم والحُلم، بين الحقيقَةِ والخيال، بين الصِّدقِ والكذبِ، بين الشَّرَفِ والرذيلة.. ليتني كُنتُ مخلوقاً غيرَ البشرِ.. !!

جَدّي والشيخُ العجـــــوز
Grandfather and old man

يُمْلَكُ البحرُباليدينِ، وتُمْلَكُ الأرضُ بالشَّفَتيْنِ

أمَا ترَى البحرَيَعلُو فوقَهُ جِيَفٌ وتَستَقِرُّبأقصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ

الإمام الشافعي

بِلادِي وإنْ جَارَتْ عَليَّ عزيزةٌ وَقَوْمِي وإنْ ضَنُّوا علَيَّ كِرامُ

قتادة بن إدريس

جَدِّي وَالشَّيخَ الْعَجُوْزَ

صَهَلَتْ الذِكْرَيَاتُ وَضَرَبَتْ بِحَوَافِرِهَا فِي أَنْحَاءِ رَأْسِي، فَتَطَايَرَ الْغُبَارُ، مُوْقِدًا شَرَرًا وَلَهِيبًا، حِيْنَمَا تَذَكَرْتُ جَدِّي، وَالشَّيخَ الْعَجُوْزَ، جَلَسْتُ أَعِدُّ حَبَاتِ عُمْرِي، وَأَرُصُّ الْذِكْرَيَاتِ كَبَائِعٍ فَاكِهَةٍ لَمْ يَشْتَرِ مِنْهُ أَحَدٌ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، كَانَتْ عِشْرِينَ سَنَةً كُلُّهَا عِجَافٍ، جَلَسْتُ كَشَبَحٍ طَوَاهُ الزَّمَنُ وَالْسُنُونَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ مُنْذُ آلَافِ السِنِينِ .

كَانَ شَيْخًا عَجُوْزًا هَرِمًا يُجَالِسنَا عَلَى شَاطِئِهِ كُلَّمَا هَرَبْنَا إِلَيْهِ، نَسْتَجِيرُ بِهِ مِنْ الرَّمْضَاءِ، نُسَامِرُهُ وَيُسَامِرُنَا، نَهُشُ إِلَيْهِ وَنَهْرَبُ إِلَيْهِ كُلَمَا أَحْدَقَتْ الصَّحْرَاءُ بِنَا، وَضَرَبَتْ بِحَوَافِرِهَا رُؤُوْسَنَا مِنْ لَهِيبِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ، وَغُبَارِ الصَّحْرَاءِ الْقَاحِلَةِ، كانَ يَهُشُ إِلَينَا يَفْتَحُ ذِرَاعَيهِ يَحْتَضِنُنَا وَيَفْرَحُ بِنَا، فَيَأْخُذَنَا بَعِيدًا بَعِيدًا فِي عَرضِهِ وَوَسَطِهِ الّذِي لَا نِهَايَة لَهُ، يُطْعِمُنَا مِنْ أَسْمَاكِهِ، وَيَجُوْدُ عَلَيْنَا بِلُؤْلُؤِهِ وَيَاقُوْتِهِ وَمَرْجَانِهِ، ثُمَّ يَعُوْدُ بِنَا إِلَى الْشَّاطِئِ وَيُوَدِعُنَا؛ فَيَفْرَحُ الأَهْلُ وَالخِلَانِ وَالْكِبَارِ وَالْصِغَارِ؛ لأَمَانَتِهِ وَصِدْقِهِ المَعْهُودِ، وَيَدْعُوْنَ لَهُ لَيلَ نَهَارٍ بِأَنْ يَدُوْمَ عَلَيْهِ الخَيرَ الْوَفِيرَ، وَأَنْ يُبْقِيَهُ لَنَا رَغْمَ كِبَرِ سِنِهِ، فَقَدْ تَسَاقَطَتْ أَسْنَانُهُ، وَانْحَنَى ظَهْرُهُ كَعرجُوْنٍ قَدِيمٍ أَكَلَ عَلَيهِ الدَّهْرُ وَشَرِبَ .

كَمْ مَرَّةٍ غَضِبَ فَيَحْتَوِينَا فِي قَاعِهِ، وَيُطْعِمُنَا لَأَسْمَاكِهِ رَضِينَا أَمْ أَبَيْنَا؛ إِنْ تَأَفَّفْنَا مِنْهُ أَوْ كَسَّرْنَا لَهُ أَمْرًا، كَانَ جَدِّي فَخُوْرًا حِيْنَمَا كَانَ يَمْتَطِي صَهْوَتَهُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ، وَتُوَدِعُنَا عَيْنَاهُ وَتُلَوِحُ لَنَا يَدَاهُ، وَتَصْغُرُ وَتَصْغُرُ كُلَّمَا بَعُدَ وَسَارَ مَعَهُ إِلى وَسَطِهِ وَهَا قَدْ بَلَعَهُ وَلَمْ نَرَ سِوَى نُقْطَةٍ بَعِيدَةٍ فِي وَسَطِه الْهَائِجِ، لَقَدْ غَابَ عَنْ أَعْيُنَنَا كَفِكْرَةٍ لَمَعَتْ لِلَحَظَاتٍ ثُمَ انْطَفَأَتْ فَلَا أَثَرَ لَهَا فِي الْكَوْنِ أو المَوجُوَدَاتِ، حِينَئِذٍ نُوَلِي وُجُوْهَنَا شَطْرَ بِيُوتِنَا، بَاكِينَ مُتَبَاكِينَ حِينَهَا تَتَلَفَتْ قُلُوبُنَا إِلَى جَدِّي حَيْثُ النُّقْطَةُ

اللَّانِهَائِيَّةُ .

كُنْتُ أَرْتَجِفُ خَوْفًا، كَمَا كَانَتْ أُمِّي تَذْرِفُ الدَّمْعَ، كُلَّمَا رَكِبَ جَدِّي صَهْوَةَ هَذَا الجَوَادِ الْكَاسِرِ الَّذِي لَا يَرحَمَ، يُعطِي وَيَمنَعُ وِفقًا لمزَاجِهِ، فِي لَمحِ البَصَرِ... أَعُودُ إِلَى كُتُبِي وَأَمْضغُ صَبْرِي، وَأُشْعِلُ مِنْ أَفْكَارِي قِنْدِيلاً يُضِيئُ لِي الدَّربَ أو شُعَاعًا يَمْتَدُ نَحْوَ الأُفُقِ الَّذِي تَنَاهِى فِي عرضِ الْبَحر الهَائِجِ، أَتَوَقعُ يَوْمًا مِنْ الْأَيَامِ أَنْ يَعُودَ هَذَا الجَوادُ بِجَدي كَمَا أَخَذَهُ، لَمْ أُفكِرْ فِيمَا سَيأتِي بِهِ أَكْثَرَ مِمَا كُنْتُ أُفكِرُ.. هَلْ سَيَأْتِي أَمْ لَا .. لَقَدْ ابْتَلَعَهُ الأُفقُ .. أينَ هُوَ؟ أَيْنَ أَنْتَ يَا جَدي .. ؟!

تِلْكَ الذِكْرَيَاتُ الجَامِحَةُ الّتِي تُصْهِلُ فِي صَدْرِي كُلّمَا تَذَكَرْتُهَا وَتَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا قَرَارَةَ رَأْسِي، وَتَقْدَحُ شَرَرًا بِحَصَوَاتٍ فِي رَأْسِي كُلَّمَا تَسَابَقَتْ ...

تَحَسَّستُ مَقْعَدِي الْوَثِير فِي الْطَائِرةِ الّتِي تَقِلنِي، وَهَا أَنَا فَوْقَ السَّحَابِ وَفَوْقَ الْغَمَامِ، أَنْظُرُ مِنْ كُوَةٍ لِأَرَى ذَاكَ السَّرَابَ الْأَزْرَقَ الممْتَدَ عَلَى الْأَرضِ، وَالّذِي لَا نِهَايةِ لَهُ وَلَا حُدُودَ .. حِينَهَا صَهَلَتْ الذّكرياتُ الْمُنْدَسَّةُ فِي أَعْمَاقِي، وَرَاحَتْ حَوَافِرُهَا تَضْرِبُ فِي أَنْحَاءِ رَأْسِي الموْجَعَة، وَتَطَايَرَ الْغُبَارُ حَتَى حَجَبَ الْرُؤْيَةَ الْوَاضِحَةَ أَمَامَ بَصَرِي ..

أَمْوَاجُهُ الْعَاتِيَةُ تَعْلُو وَتَهْبِطُ .... وَجَدِّي يَسْبَحُ عَلَى ظَهْرِهِ وَيَعْلُو مَعَ الْأَمْوَاجِ وَيَهْبَطُ، لَا.. إِنَّهُ يَرْقُدُ فِي جَوْفِ سَمَكَةٍ كَبِيرَةٍ نَامَتْ أَسْفَلِ الْبَحْرِ تَحْمِيهِ وَتُغَذِيهِ وَتُدَفِئُهُ وَتَحْرُسُهُ مِنْ سِبَاعِ البَحْرِ.. حَتْمَا لَابُدْ أَنْ يَكُونَ حَيًا؛ لَأَنَّ الْأَسْمَاكَ الّتِي مَعَهُ حَيَةٌ، مُنْذُ أَنْ صَاحِبَهَا فِي الْبَحْرِ، عُمْرُهُ عُشْرُوْنَ عَامًا فِي الْبَحْرِ كَمَا هُوَ عُمْرِي أو أَقْرَب، أَلَيسَتِ الْأَسْمَاكُ تَعِيشُ تِلْكَ السّنِينَ ؟ إِنْنِي أُشَاهِدُ الْبَحْرَ كُلَّهُ، لَيْتَنِي أَعْرِفُ جَوْفَ تِلْكَ السَمَكَةِ فَأَنْزِلُ وَأَحْتَضِنُ جَدِّي الّذِي اسْتَقَرَ فِيه مُنْذُ عِشْرِيْنَ عَامًا ...

تُوْقِظُنِي الْمُضِيفَةُ مِنْ ثُبَاتٍ عَمِيّقٍ، قَائِلَةً :

.تَفَضَلْ ...

.أَيْنَ ... ؟!

.قَدْ وَصَلْنَا مَطَارَ...

قَبْلَ أَنْ أَسْحَبَ حَقِيبَتِي، تَحسستُ جَوَازَ سَفَرِي، وَتَأَمَلْتُ صُوْرَتِي الّتِي تَرْقُدُ فِيهِ، أَحْسَسْتُ بِأَنَّ بَلَدِي وَوَطَنِي يَرْقُدُ دَاخِلِي، وَأَنَا عَلَى مَشَارِفِ أَبْوَابِ الغُرْبَةِ وَالخُرُوْجِ مِنْ بَابِ الطَائِرَةِ .

صَخَبُ الحَيَاةِ تَسَاوَى مَعْ صَخَبِ الأَمْوَاجِ الْهَادِرَةِ فِي عُرْضِ البَحْرِ وَهَدِيرِ الذِّكْرَيَاتِ الجَامِحَةِ وَالّتِي تَضْرِبُ بِرَأْسِي لَيْلَ نَهَارٍ، لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ إِلَا أَنِيْنًا وَصَهِيلاً لِتِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ الّتِي تَجُوْبُ الصَّحْرَاءَ، وَتَوَجْعَاتِ سَمَكَةِ الْقِرْشِ الَّتِي تَحْتَضِن جَدِّي فِي عرْضِ البَحْرِ، فقَدْ حَاوَلَتْ مِرَارًا أنْ تُكَفِّرَ عَنْ سَيئَاتِهَا، وَتَرُدَّ جَدي لَنَا، وَلَكِنْ ضَلّتْ الطَّرِيقَ، حَلِمْتُ بِأَنَّ الذِّكْرَيَاتِ تَحْمِلُنِي عَلَى ظَهْرِهَا وَتَعُوْدُ بِي إِلَى أُمِّي الَّتِي ذَرَفَتْ دَمًا عَلَى غِيَابِ جَدِّي مُنْذُ عِشْرِيْنَ عَامًا،كَمَا أَحِسُّ بِأَنَّ الْغَدْرَيَمْلُوْنِي .

فَجْأَةً كَانَ التَّصْمِيمُ وَالتَّحَدِي لِكُلِّ الذِّكْرَيَاتِ الّتِي بَاتَتْ تَصْهِلُ فِي رَأْسِي، وَتَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا مُحْدِثَةً شَرَرًا وَجَلَبةً كُلَّمَا اصْطَكَتْ حَوَافِرُهَا بِصُخُوْرِ رَأْسِي الْعَاتِيةِ الْمُلْتَهِبَة. كَانَ الْبَحْرُرِسَالةً .. كَمَا كَانَتْ أمي رِسَالَةً .. وَكَانَ وطني رِسَالَةً ..

أنْهيتُ عَمَلي عَلَى أكمَلِ وَجْهٍ، وَعِشْتُ مُتَحَدياً نَفْسِي بأنَّ الزَّمَنَ سِبَاقٌ، والنَّجَاحَ حَلِيفُهُ الصِّدْقُ والإخلاصُ، تَوَجْتُ رِحْلَتِي وَرِسَالَتِي بِكَلِمَةٍ أَلْقَيتُهَا فِي مُؤْتَمَرٍ تَعَددتْ فِيهِ الجِنْسِيَاتُ كَمَا تَعَدَدَ فِيهِ الذُكُورُ وَالإِنَاثُ، وَكُنْتُ وَاحِدًا مِمَنْ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ وَطَنَهُ الجَرِيح، صَفَّقَ الحُضُورُ حِينَمَا قُلْتُ بِأَعْلَى صَوتِي وَقَدْ ذَرَفَتْ عيناي : أنا ... وَقْتَهَا لَمْ أَرَ فِي القَاعَةِ سِوَاي، كَانَتْ جُفُونِي مُطْبَقَةً عَلَى مُقْلَتَيَ عَيني، فَكَانَ التَّصْفِيقُ قَدْحٌ لِتِلْكَ الحَوافِرِ المُسَننةِ المُدَببةِ لِخيولٍ تَعُودُ بِي حَيْثُ وَطَنِي الأبِي الجَرِيح ....

حَزَمْتُ حَقِيبَتِي وَصَعدتُ سُلّمًا أتَلَفَّتُ يَمينًا وَيَسَارًا أبحَثُ عَنْ رَقَمِي، هَاهو ذا بجوارِ نَافِذةٍ مُدَوَّرَةٍ سُرِرْتُ فِي نَفْسِي لأنَني سَوْفَ أَنْظُرُ مِنْهَا إلى السَّحُبِ وَالضَّبَابِ وَالغُبَارِ كَأحْصِنَةِ المِرْمَاحِ فِي أَرْضِ السِبَاقِ،

وَهَا هِي انطَلَقَتْ بِنَا فِي لَمْحِ البَصَرِ تَشُقُّ العُبَابَ وَتَعْدُو فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ الَّذِي لا نِهَايَةَ لَهُ وَلا حُدُود، نَظَرْتُ فإذا ببيوتٍ كَعِلَبِ الكِبريتِ قَدْ اصْطَفَتْ وَبَينَهَا خُطُوطٌ تَتَداخَلُ، يَركضُ فَوقَهَا نَمْلٌ أَبْيَضٌ وَأَسْودٌ تَكْبُرُ أَمَامَ بَصَري كُلَمَا خُيلَ لِي بَأَنَنِي أَقْتَربُ، وحِينَمَا تَوقَفَتْ وَجَدتُ نَفسي تُلامِسُ الأَرضَ وَالتُرابَ، وَكأَنَّمَا كُنْتُ فِي نَومٍ عَمِيقٍ وَحُلمٍ، كُنْتُ أُشَاهِدُهُ عَنْ كَثَبٍ، كَانَ الهَوَاءُ الَّذِي عَبَّأَ صَدْرِي جَعَلَ كُلَّ ذَرَّةٍ فِي كَيَانِي تَلْهَجُ بِالتَسبيحِ وَالحَمدِ للهِ، فَوَطَئِي بَاقٍ كَمَا أَنَا بَاقٍ، عِنْدَهَا أَخَذْتُ شَهِيقاً وَزَفِيرًا مِرَارًا وَتِكْرَارًا، وَعَادَتْ الذِّكْرَيَاتُ كَأَحْصِنَةٍ تَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا بِكُلِ قُوَةٍ فِي قَرَارَةِ رَأْسِي؛ لِتُعِيْدَ لِي المَاضِي وتَزُفُ نَجَاحِي وَفَرَحِي، وَتَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا، تُسَابِقُ الزَّمَنَ، وَنَحْنُ نمتَطِي ظُهُوَرَهَا شَوْقًا لِبِلَادِنَا الحَبِيبَةِ !! ...

عَـــادُ النُّجُـــومِ
The stars returned

سأطلبُ بُعدَ الدَّارِ عنكمْ لِتَقرَبُوا وتَسْكُبُ عَيْنايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا!

العباس بن الأحنف

العَاشِقَانِ كِلاهُمـــا مُتَعَتِّبُ وَكِلاهُما مُتَوَجِّدٌ مُتَغَضِّبُ
صَدَّتْ مغاضِبةً، وصَدَّ مُغاضِبًا فكلاهُما مِما يُعالِجُ مُتْعَبُ
إنَّ التَّجَنُّبَ إنْ تَطاوَلَ مِنكُمـــا دَبَّ السُّلُوُّ لَهُ، فعَزَّ المَطْلَبُ

العباس بن الأحنف

عَادُّ النُّجُومِ

قطعتْ الصلةَ بينهُ وبينها زمنًا، فصدتْ عنه وتباعدَ عنها، ولكنَّ الذي ملكَ شغافَ قلبيهما كان أقسَى من أن يُقْطَعَ . فكَّرَ مِرارًا أن يعيد العهدَ وأن يكفِّرَ عن نَزقِه وعنجهيتِه التي طحنتْ نفسَهُ وجعلتهُ شامخًا ظانًا منه بأنَّهُ امتلكَها بينَ يَدَيْه، اِشتاطَ غيظًا وألمًا، واشتعلَ لهيبًا لفِراقِها وكانتْ كذلك، ولكنَّ كرامتَها وقفتْ سدًّا منيعًا أمام تَدفُّقِ حبٍ صافٍ الجريانِ في شَرايينها .

تَلوِي مِرارًا بلسْعِ كُرباجِ الحبِّ الذي أشعَلَ قلبَه نارًا كُلَّما خَلَا بنفسِه وتذكرَ تلكَ الصِّلةَ وذلك العهدَ الورديَّ، كانَ حُلمًا يعيشُ مُناه، يحلمُ ويَعُبُ منهُ عبًّا كلما ظَمِئ إليه ...

انتكسَ على عَقبَيْهِ حينما حاولَ التَّواصلَ معها، فكانتْ كصخرةٍ صَلدةٍ صماءَ أبَتْ أنْ تتزحزحَ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ أوْ أنْ تتحلَّلَ جزئياتُها من حالتِها الصلبةِ إلى الحالةِ السائلة رغم أنها كانتْ له حالةً غازيةً من قبلُ، تَطيرُ إليه كُلَّما كان قلبُه يَهفو إليها عِشقًا وحبًا وَدَنَفًا .. كانتْ كالموجةِ الهادئةِ تَعزِفُ له سيمفونيةَ الحُبِّ والخلودِ الأبديِّ كلما زمجرَ في قاعِ بحرِهِ الهادِر، واليومَ صارتْ موجةً هادرةً غاضبة تجرِفُ كُلَّ أحاسيسِ الحُب التي قابلتْها وأحستْ بتقلباتِها.

صحا من نومه تعسًا مُطرقًا حزينًا، فكان منذُ قليلٍ يَركبُ معها قاربَ الأحلام، فانقلب بهما في عُرضِ البحرِ الهائجِ الهادِرِ، طارتْ هيَ بفعلِ الرِّياحِ إلى عَنانِ السماءِ، وغاصَ هوَ إلى القاعِ، وجَدَ نفسَه بينَ الأصدافِ والمَحارِ وبينَ الشِّعاب المُرجانيةِ التي قَطَّعَتْ أوصالَهُ كلما تحرَّكَ، وتكالبتْ عليه سباعُ البحرِ ودرافِيلِها، قابَلَهُ حُوتٌ أزرقُ ضخمٌ فاغرًا فاهُ ليلتَقِمَهُ؛ فهرَبَ منهُ وتدَثَّرَ بينَ الشِّعابِ المُرجانية، وسَبَحَ

متنكِرًا كما تَسْبَحُ الأسماكُ الملتفةُ حولَهُ مذعورًا يُفكِرُ بمَنْ طارتْ إلى عَنانِ السَّماءِ .

كَوَّرَ جسمَهُ بركْنِ شُرفةِ بيتِهِ وهو يَنتَحِبُ وقدْ اغرورقتْ عيناه وحلَّقَ بناظريه إلى السماءِ والنجومِ اللامعةِ، وقدْ أخذتْ تتراقصُ أمامَ بَصرِهِ فشَرَعَ في عَدِّهَا عَدّاً ... والساعةُ تقاربُ الثانيةَ بعدَ منتصَفِ الليلِ، انتصفَ الليلُ كما تَشَظَّى إلى نصفينِ نِصْفٌ في الأرضِ ونِصفٌ في السماء، بين جسمِهِ الذي هو من طينٍ لازِب، وروحِهِ التي حَلَّقتْ في السماء بين النجومِ اللامعة.

كانتِ السَّماءُ ملبدةً بالغُيومِ وكانتْ تَرْمَحُ في ليلٍ ساجٍ ساكنٍ وتغرِسُ حَوافِرَها بين النجوم، كلما صهلتْ وتسارعت ظهر خلفَها نُجومٌ لامعةٌ في كَبِدِ السماء تنظرُ إليه تتجاوب نفسُه مع أصدائِها، خُيِّلَ إليهِ بأنَّهَا إحدَى هذهِ النجماتِ اللامعة، سمعَ صَوتًا هاتِفًا في السَّحَرِ.

- أنتَ الذي ظلمتَني بكبريائِك المعهودِ ؟

تأمَّلَ الصَّوتَ، إنَّه يُشْبهُ صوت محبوبَتِه ..

- أنتِ ... ؟!

- نَعمْ، أنا ... !

- ارحمي صَبًّا يَقتُلُه الهَوَي ..

- أنتَ مَنْ بعثرتَهُ في الهَواءِ ..

ضَحِكتْ نجمةٌ بجوارِها وغَمَزتْ في خَفاءٍ، لاحظَتْها أنْجُمٌ كُثرُ؛ فهرولن نحوها يُلَمْلِمْنَ أطرافَ رِدائِها الأبيضِ الناصع ... تَبَخْتَرَتْ بينهنَّ تِيهًا ودَلالاً، وكان الموكبُ مَهيباً، والأضواءُ لامعةً، أذنَّ الفَجرُ؛ فاشتعلتِ السماءُ ضياءً، وانطفأ لمعانُ النُّجوم، صَهَلَتْ وتراكَضَتْ خيولُ السُّحُبِ الداكنةِ في كبدِ السماء واصطفَقتْ متصادمةً، فانهمرتْ وأغرقَتِ الأرضَ بالماءِ، وتصاعدتْ أرواحٌ وزمجرتِ الرّياحُ، وكلما مَرَّ عليه نفرٌ في الصَّباحِ، قالوا : مَاتَ عَادُّ النُّجُومِ الوَلْهَانِ.. !!

دويٌّ الهمـــــس
The sound of a whisper

«يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ»

{القلم: ٤٣}

«وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ»

{فاطر: ٣٧}

دَوِيُّ الهَمْسِ

لقد غَشِيَنا الموتُ زمناً طويلاً، ألا تُسقطُ السماءُ بماءِ الحياةِ بَعْدُ ..؟! قالَ الأمواتُ لبعضِهم ليلاً في مقابرِ القرية .

وما إن انتهوا مِن مقولتهم إذ تُغدقُ السماءُ بالأمطارِعلى قبورِهم؛ فتشققتْ وخرجوا كما ولدتهم أمهاتُهم، رؤوسُهم بيضاءُ، أجسادُهم داكنةٌ واهنةٌ، لا ينظرون إلى عوراتِهم، فالظلامُ حالكٌ وما هم فيه أكبرُ، أصواتُهم تقربُهم مِن بعضهُم البَعض، يتصافحونَ ويتساءلون .

ليسَ بينهم غنيٌ وفقيرٌ، ولا قويٌ وضعيفٌ، ولاتُوجدُ لهم مناصبٌ وألقابٌ، لهُم أعمالٌ فقط، أجسادُهم رُكّبتْ على عِظامٍ منذُ لحظاتٍ كانتْ متفرقةً باليةً نَخِرةً ..

إذا تحدَّثَ مُتحدِّثٌ سُمِعَ لَهُ، وإذا حَزِنَ حَزينٌ فالكلُ يحزنُ لَهُ، وإذا فَرِحَ سعيدٌ فرحوا وسَعِدوا له، قانونُهم واحدٌ، وكلامُهُم صِدقٌ، وما هم فيه، لا تدليسَ فيهِ ولا مُراوغة، إنَّهَا الحقيقةُ الواضحة .

فجأةً .. يَسمَعونَ أصواتاً غريبةً آتيةً عليهم، وقناديلَ مُشتعلةً بضوءٍ خافتٍ، وصندوقاً مستطيلاً يألفونَهُ جَيداً، يُحمَلُ على الأكتاف، وهاهم يدخلون أرضَ المِيعادِ؛ فتدثروا في قبورهم خَوفاً من أضواءِ القناديلِ الباهتةِ، وأنْ تُفتضَحَ أخبارُهُم وتُنتهكَ أسرارُهُم، ويُكتشفَ زيفُهم وخداعُهم الذي كانوا عليه ..

أُلقِيَ ما في الصندوقِ تحتَ الأرضِ، وقَفَلَ مَن جاءوا بهِ إلى بيوتِهم ومخادعِهم؛ فخرجوا وافترشُوا الرّمَالَ، بحلَقُوا في بعضِهم، هَيْئتُهُم غَريبةٌ، مَحاجرُعُيونهم فارغةٌ وخاوية، أسنانُهم مَصفوفةٌ ومدببةٌ، عظامُ صدورِهم تُعَدُ، أصابعُهم عُقَلٌ عُقَلٌ، تساءَلوا تراشَقوا تكابَروا .

قال واحدٌ : كنتُ قاضياً، وقال آخرُ: كنتُ عُمدةً، وقال ثالثٌ : كُنتُ شيْخاً، وقال رابعُهم : كُنتُ شحاذاً، وقال الخامس: كُنتُ طبالاً .. وأختي كانت راقصةً .. وأمي جاءتْ بي سِفاحاً ، فهل لي بمقامكم مجلسٌ، وقال

آخرُ: كُنتُ كذَّاباً ولا يعرفُونَني إلا بالصِّدقِ، كنتُ أسرقُهم ليلاً وأواسيهم نهاراً.

وجاء من شقَّ الجمعَ الغفيرَ، وقال : أما أنا لا أكذبكم، سرقتُ خروفاً لجارٍ لنا، كنتُ مُعجباً بقرونهِ وانتقيتُهُ من بين الخِراف لقرونه الطويلة، جاء معي فهو ينطحني منذ جئتُ ديارَكم .. ليتني سرقتُ النعجةَ العرجاء العمياء التي لا قرونَ لها .. انظروا إلى عظامي فهي مُكسَّرةٌ، غيرَ أنكم تعرفون بأنَّها صارت نَخِرةً .. ضحِكوا جميعاً .

وقال الآخرُ : كانت أمي راقصةً وكنتُ أتنعمُ بمالها، فقبري يطفحُ بالقيحِ والصَّدِيدِ، إن لم تُصدقوني اذهبوا وأروه .. وأنصحُكُم أن تَسِدُّوا أنوفَكم أولاً .. وقال .. وقال .. وقال آخرُ: أنا كنتُ صَادِقاً، وأنتَ كنتَ كَاذباً، وأنتَ الآخرُ كُنتَ مُنافقاً، وظلُّوا على هذه الاعترافات الصادقة، نعم .. « الموتى لا يكذبون ..!»

وَجِيء بحديث العهد وسألوه :

كيف جئتَ ؟ ومن جاءَ معكَ ؟ وكيف كانت أمُكَ ؟

قال : كانت أمّي عاهرةً، وجاءت بي سِفاحاً .. فمنذ أن وطِئْتُ أرضَكُم، رجلان اسمهما مُنكرٌ ونكيرٌ يُجلساني ويَرْسُفاني بسلاسلٍ من لهبٍ ونارٍ، كلُّ واحدٍ يشدُ من ناحيةٍ، ويشبعاني ضرباً ورَكْلاً بمقامعَ من نار، حتى جئتم وأخرجتموني بعدما نفَّضتُ التُرابَ عن وجهي .

قالوا : إذنْ كُلُنَا من أصحاب النَّار، ليس فينا من يكونُ في الجنان .. انتصف الليلُ ولم نقمْ سُرادِقاً لحديث العهدِ، تطوع أصحابُ المهن فأقاموا سرادقاً كبيراً يَسَعُ لجميع الأموات، وقرأ الشيخُ واكتظتْ الطُرقاتُ، وجلس الجالسونَ وشنَّفوا آذانَهم للقاريْ .

قالوا : ما أجملَ القرآن ! ما أحسن البيان ! ليتنا اتبعناه فكنا من أصحاب الجِنان، انفضَّ المُعَزُّونَ ولم يبقَ سوى أصحاب المناصب يساومونَ ويناقشونَ ويتفلسفونَ ويتغامزونَ ويتلامزونَ ويتفاخرونَ ويتشاتمونَ ويتصارخونَ ويتضاربونَ ويتقاتلونَ، بعدما نهَشوا لحمَ الميتِ القادم، وتركوهُ عظاماً متفرقةً نخِرَةً .

بينما هم في تداخُلٍ ودويّ كدَوِيّ النَّحلِ؛ تُشرقُ الشمسُ على قبورٍ تملَؤُها عظامٌ نخِرةٌ وجماجمُ مُتفرقةٌ .. !!

الحُلم الضائع
lost dream

- لست في احتياج للأطباء، ولكن أين ..... ؟!!

الحُلمُ الضّائِعُ

وابيضّتْ عيناهُ من الحُزنِ فهو كظيم، ماتتْ زوجتُهُ في ريعانِ شَبابِها وتركتْ لَهُ ابنةً، كانتْ حسنةَ المَلمحِ رقيقةَ المشَّاعرِ، يشوبُ بشرتَهَا سُمْرَةٌ خفيفةٌ، فقدُ ورثتْ زهرةُ عنْ أمها صِفاتِ المُلوحةِ والدَلالِ، وثغراً باسماً كزهرةِ الفلِ حينما تتفتح في مَقدمِ الرَّبيعِ .

كانَ العمُ جمعةُ رجلاً طيبَ القلبِ، حسنَ الأخلاقِ والسيرةِ والمَعشرِ، تزوجَ متأخراً بعدما تقدمَ بهِ العُمرُ ولم ينجبْ إلا بعد الأربعين، كانتْ حياتُهُ بسيطةً يكفيهِ طعامُ يومهِ، قانعاً حامداً شاكراً ربَّهُ .

لفظتَهُ وظيفتُهُ الحكوميةُ فدَارتْ بهِ الظنونُ، كيفَ يقومُ على تربيةِ ابنتهِ، ومعاشُهُ ١٢٠ جنيهًا في الشهرِ، وقدْ بلغَ بهِ العمرُ عِتياً ولم يمتلكْ من حُطامِ الدنيا شيئاً سِواهُ . كُلَّما فكرَ في تجهيزِ ابنتهِ عندما يتقدم لها خطيب تُهدُ قواه وتسْودُ الدنيا أمامَ ناظريه كان يحملُ ذلك فوقَ رأسهِ هماً كجبالِ تُهامة .

فكرَّ ثم فكرَّ كيف يدبرُ أمرَهُ، فاهتدى لأن يشتري سَبتاً ويزينُهُ ويقومُ ببيعِ سُوداني يعدُهُ في قراطيسٍ بالقِطارِ، فوجدَ ذلكَ شَرفٌ من أن يسألَ النّاسَ أعطوهُ أو منعوهُ وقد تسورتْ الفكرةُ في رأسهِ، وقام بتجهيزها وها هو جاهزٌ للبدءِ .

صلى الصّبحَ وحملَ سبتهُ هاشاً ممنياً نفسه بالخير، وركبَ قطارَ السّاعةِ السّادسةِ المتجه إلى القاهرة، حيث يكثر عدد الرُكابُ، سواءُ العاملين أو الموظفين أو الطلاب والطالبات في هذا الموعدِ متجهين لأعمالهم أو إلى جامعاتهم .

نادى بصوتٍ مبحوحٍ :

- السُّوداني المحمص .
- السُّوداني اللذيذ .

اشترى منه كثيرٌ من الركابِ والراكباتِ، فَكلُ قرشٍ يدخلُ جيبَهُ يحسُ

بأنَّهُ يهدُ جزءاً من جبلِ الهمِ الذي يجثمُ فوقَ رأسهِ والذي يشبه جبل تهامة، أخذ يتنقلُ من محطةٍ إلى أخرى ومن قطارٍ إلى آخر حتى ينتهي من بضاعتهِ، ويضمُ قروشَهُ ويعودُ إلى بيتهِ هانئاً سَعيداً مُغتبطاً، وقد اشترى مَا لزَّ وطابَ من الطعامِ ويتناولهُ مع ابنتهِ زهرة والتي تستقبلهُ كلما جاءَ هاشةً فرحةً مسرورةً، فيضمها في حنوٍ منقطعِ النظيرِ ويقبلُ جبينَها، وكانتْ تعدو في البيتِ كفراشةِ بأجنحةٍ مُزركشةٍ وضيئةِ الوجهِ باسمةِ الثغرِ، فقد قطعتْ عليه الوحدةَ وملأتْ عليهِ البيتَ حُباً وفرحاً وحُبوراً، كانَ يستمدُ من ضَعفهِ وهَرمهِ قوةً كُلمَّا رَآها .

دئبَ العم جمعة على هذا العملِ وكانَ يقسّمُ ما يمنُ عليهِ من رزقٍ ومالٍ إلى نصفين نصفٌ للطعامِ والشَّرابِ وشراءِ السُّوداني، والنصفُ الآخرَ يضمُهُ لتجهيزِ زواجِ زهرة، وقد بلغَ بهِ الهدفُ منتصفهُ أو يزيد ..

صَلى الفجرَ وحملَ سبتهُ المعهود ككلِ يومٍ وظلَ منتظراً قدومَ القطارِ كعادتهِ، فقدْ تأخرَ عن ميعادهِ المعهود، وما أنْ سمعَ صفارتَهُ قادماً تأهب كَكُلِ الرّكابِ للقفزِ من أي بابٍ أو شباكٍ كانَ، فعدد الرّكابِ يزيدُ، وبينما العم جمعة ينحشرُ بينَ الجموعِ المتلاحمةِ والمتصارعةِ في الدخولِ تحركَ القِطارُ مع صفارةِ إنذارٍ تدوي في أرجاءِ المحطةِ، يسقطُ أرضاً ويطيرُ سبتُهُ تحتَ عجلاتِ القِطارِ، ويتطايرُ ما فيهِ بينَ القُضبانِ، يهرعُ النّاسُ من كُلِ الأرجاء والذين لم يحالفهم الحظُ أو لم تواتيهم الفرصةُ من ركوبِ القطار، حملوه في شبه غيبوبةٍ وقد علتْ صُفرةٌ وجهَ العجوز والآلامُ تنهشُ عظامَهُ . وجد نفسَه بينَ أسرةٍ بيضاء وحولُهُ الأطباءُ، ولمَّا أفاقَ قال :

- أين أنا ؟ ومن أنتم ؟
- طمأنهُ على سلامتهِ، فهو بخيرٍ ويمكن الخروج .

بينما هو خارج تتفرسُنَ فيهِ الممرضاتُ، فكانَ باكٍ تتساقطُ من عينيه دموعٌ غذيرةٌ، فهدهدنَ عليه، وتشير بعضهنَ عليه بأن يرجع للأطباءِ؛ فهزَّ رأسَهُ نافياً ... وحينما كررنَ عليه السؤالَ بالعودةِ، قالَ :

- لست في احتياج للأطباءِ، ولكنْ أينَ ..... ؟!!

الصَّبَاحُ الكَاذِبُ
False morning

... ومازالَ قلبي يَخفقُ حَتى الصَّباح .. !!

الصَّبَاحُ الكَاذِبُ

خفقَ قلبي لطلقاتٍ في صَدري، وقفتُ مذعوراً خَائفاً بعدَ أنْ صَحوتُ، تَرتَجفُ سَاقاي ويَقْشَعِرُ جِلدي، فالغبارُ كَثِيفٌ والشَّمْسُ تُرسِلُ أشِعَتَهَا الذَّهبية فِي كُلِّ مَكَانٍ، والحَياةُ أخذتْ تَدبُ فِي كُلِّ شَيءٍ، النَّبَاتُ بَدأ يَغْسِلُ أوراقَهُ مِن بَردِ النَّدَى، والعَصَافِيرُ فَرّتْ مِن أوْكَارِهَا أسْرَاباً .. أسْراباً، دُونَ أنْ تَسْمَعَ أُذنَاي زَقْزَقَتَهَا المَعْهُودَةَ فهي مذعورةٌ خائفةٌ، وتحملقُ عيناي في أسْرَابِها وهي مختلفةُ الاتجاهاتِ، غبارٌ كثيفٌ يغطي كُلَّ شَيء حَولي، الحيواناتُ هي الأخرى تركضُ في الشَّارعِ وتتناطحُ، وخوارُ بقرةٍ كتومٍ ينبعثُ خلفَ الجدرانِ ويعقبُهُ نهيقُ حمارٍ وصراخُ أطفالٍ، النساءُ هنَّ الأخريات يركضنَ شبه عارياتٍ وشعورهن منتفشة وآثار بقايا نوم تكحلُ عيونهن غيرَ مبصراتٍ وِهادِ الطريقِ ويصرخنَ، رجالٌ قَدْ شمروا جلابيبهم إلى ركبهم، ومنهم من يضع أطرافها تحتَ أسنانهم وهم يركضون، وعجزةٌ يجلسونَ وسطَ الطريقِ وفوقَ الأرصفةِ ويعتمدُ أغلبهم على عِصي وعيونهم جاحظةٌ محملقةٌ في المارةِ لا ينظرون إلى شَيء أفواهُهم فاغرةٌ، رائحةُ أدخنةٍ تنبعثُ من البيوتِ كما تنبعثُ من عيونِ هؤلاءِ العَجزةِ ..

أتساءلُ : ماذا حدثَ ؟!

أهُناكَ خَطبٌ أصابَ النَّاسَ، كُلُ النَّاسِ وأطالَ الحيواناتِ، حتى العصافير حينما فرتْ من أوكارِها حزينةً، لا تصدر تغريداً ولا زقزقةً، كما عاهدتها منذ كنتُ صَغيراً ألعبُ معها في مثل هذا الصَّباحِ، الذي لا تكتنفه مثل هذه الغيوم وتلك الأدخنة .

خرجتُ للشّارعِ أتأملُ الكون، اشتعلتْ نفسي وانقبضَ قلبي مِراراً، أحسستُ بأنَّ القيامةَ قد قامتْ وأنَّ السَّماءَ قدْ أنشقتْ وردةً

كالدهانِ، اقشعرَ جِلدي واشتعلَ رأسي وطارَ قَلبي، ومازالتْ الشَّمسُ ترسلُ أشعتَهَا والأدخنةُ تتصاعدُ في السَّماءِ، عُدتُ إلى سَريري ومددتُ يدي؛ لأطفيء صراخاً فوقَ رأسي يعلو ويعلو، وتجري عيناي خلفَ عقاربَ انتصبتْ عندَ الثانيةِ والنصفِ ليلاً؛ فمسحتُ ببصري صفحةَ السَّماءِ من نافذةٍ تكادُ يتهشمُ زجاجُها فإذا النجومُ قدْ غارتْ والسحبُ تراقصتْ، والظلامُ يفترشُ الكونَ كله في صمتٍ مُميتٍ، تحققتُ أنَّ الطوفانَ ابتلعَ جميعَ الأحياءِ ونسيني وحيداً، فمازلتُ على قيدِ الحياةِ.. نعم مازلتُ على قيدِ الحياةِ؛ فدثرتُ رأسِي تحتَ الغطاءِ، والبردُ يقبضُ بفكيهِ على أوصَالي، ورحتُ أرتجفُ وأضغطُ على صوتِ صَريرِ أسناني حتى لايسمعُني ... ومازالَ قلبي يَخفقُ حَتى الصَّباح .. !!

المحتـــوى

إهداء ٣
تقديم ٥
مقدمة ٧
ميلادُ بذرةٍ..... ٩
الحُلْمُ الأسطوريُّ..... ١٣
حيتانُ البحر..... ١٧
الثوبُ الأبيضُ..... ٢٣
بائعةُ الجَرجير..... ٢٩
بائعةُ الفِئران ٣٥
إلى جدَّتي ٤١
الوِشاحُ الأسود..... ٤٧
السُّلَمُ الخشبي..... ٥٣
طرْدُ الذُّبابِ الكاسِر..... ٥٩
رجل الكرامات ٦٧
دوَّامةُ الريح ٧٣
جَدّي والشيخُ العجوز ٧٩
عَادُّ النُّجُومِ ٨٥
دويٌّ الهمس ٨٩
الحُلم الضائع ٩٣
الصَّباح الكاذب ٩٧

الكاتب في سطور

السّيد رَاشِد الوَصِيفي
جمهورية مصر العربية

- تخرج في كلية الآداب تخصص اللغة العربية وآدابها .
- حصل على الدراسات العليا في العلوم الأدبية .
- حصل على الدراسات العليا في العلوم التربوية .
- عمل في التربية والتعليم ما بين مصر وسلطنة عمان .
- عمل مستشاراً للغة العربية والتربية الإسلامية في مدارس الأورمان بالقاهرة
- محاضر لطلاب الجامعة في مصر، وسلطنة عمان، وقطر.
- عمل في تطوير المناهج بوزارة التربية والتعليم والشباب في(سلطنة عمان)
- كاتب صحفي في كثير في الدوريات المتخصصة الأدبية، والصحف القومية .

- عمل محرراً ومصححاً لغوياً في كثير من الصحف العربية والخليجية .
- صحفي بـ (جريدة عُمان) سلطنة عُمان .
- صحفي بـ (جريدة الراية) القطرية .
- عضو اتحاد الكتاب.
- كاتب موقع الألوكة.
- كاتب أخبار اليوم المصرية.
- كاتب جريدة أنباء وآراء الإسكندرية.
- كاتب (المجلة العربية) السعودية .
- كاتب (الوعي الإسلامي) الكويت .
- نال عدة شهادات تقديرية وجوائز في الأدب (المقالة، القصة، الشعر) والدراسات الأدبية .
- تناولت كتاباته في كثير من الدراسات الأكاديمية .

من أعماله الأدبية :

- كتاب (رؤى على طريق الهدى).
- كتاب (تأملات ثقافية).
- مجموعة قصصية للأطفال (أرض الجرذان).
- مجموعة قصصية للأطفال (حصة وقطار الدوحة).
- مجموعة قصصية للكبار (الثوب الأبيض).
- ديوان شعر (الجنائز المعلقة).
- سيناريو / استراتيجية التوعية المرورية (مصور) .

ماســـتر ©